محمد علي التسخيري

الأمل

بين الاسلام والمبادئ الوضعية

الظواهر العامة في الاسلام

الظّواهر العامّة في الاسلام

(١)

الأمل

بين الاسلام والمبادئ الوضعيّة

محمّد علي التسخيري

الاهداء

سيدى ومولاى أمل العالم ، ومنقذه من الضلال والضياع ،
ومالىء الارض قسطاً وعدلاكما ملئت ظلماً وجوراً !
سيدى الامام المهدى : قائد البشرية الى كمالها !
اليك اهدى هذه الهدية المتواضعة . .

حكمة الكتاب

«وألا وانكم فى ايام أمل من ورائه أجل فمن عمل فى أيام أمله قبل حضور أجله : نقعه عمله ، ولم يضرره أجله .

ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عملـه ، وضره أجله .

الامام
امير المؤمنين (عليه السلام)
فى
نهج البلاغة

عزيزى القارىء

بين يديك حلقة من سلسلة حلقات نرجو أن نوفق لايصالها اليك وكلها تستهدف عرض اهم الظواهر العامة فى رسالة الاسلام الخالد.

وباكتمالها تتوضح صورة اروع عقيدة ونظام قدمته السماء للبشرية ليقودها نحو كمالها المنشود .

والامل المبشر بالانفتاح انفتاح البشرية على الاسلام بدأ يورق يوماً فيوماً بعد أن كلت البشرية عن الجري وراء السراب الخادع للنظم الاخرى .

كما أن لهذه السلسلة اختها في الهدف وهي سلسلة « نظرات في النظم الاسلامية » نسأله جل وعلا ان يوفقنا للقيام باعباء تنظيمها

وتقديمها للقراء مساهمة متواضعة منا في مجال التعريف بالاسلام .

وما علي ان اذكر به هنا هو ان كلتا السلسلتين توختا الوضوح لانهما في الاصل كانتا دروساً عامة للتوعية روعي فيها الهدف التربوي العام الذي يتطلب هذا الوضوح .

ومــن الله اسأل ان يمن علينا جميعاً بالتوفيق لخدمة اسلامنــا العظيم والسير على هدى الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله والقادة من اهل البيت عليهم السلام وهو الموفق .

قم المقدسة ١٣٩٧ هـ

محمد على التسخيرى

المــدخل

* عنصر الامل : احد معالم المبدأ الناجح

* العلاقة بين النمو العقلى والامل

* التناسب الطبيعى بين نوعى كل من الامل والعمل

* عنصران مقومان للدعوات

* مع المبادىء الوضعية

عنصر الامل أحد معالم المبدأ الناجح

يتعب المفكرون كثيراً في تحديد معالم المبدأ الناجح والذي يمكنه أن يقودالانسان لحل مشكلتهالمستعصية عليه اجتماعياًولكنهم مهما اختلفوا في هذه المعالم ـ فانهم متفقون على أن هناك عنصراً ضرورياً يجب توفره في أي مبدأ يريد لنفسه أن يقود جماعة من الناس ،فضلا عنادعاء قيادةالانسانية . وذلك العنصر هو«الامل»...

ولواستقرأنا ما طرح على الساحة الفكرية والعمليةمن نظريات مختلفة ، ومبادىء متكثرة ، فاننا نجد أنها اعتمدت كثيراً على أن تجلي هذا العنصر فيها ، وتمنحه سمة ما ، بحيث يتصور الاتباع أنه لاشك متحقق ، ان آجلا أو عاجلا .

ولو أردنا أن نرجع بالامر الى جذوره النفسية ، لوجدنا أن

هذا العنصر يعتبر خير مازود به الانسان من بين الحيوانات بعد نعمة العقل الكبرى . بل نكاد نجزم بأن الامل ـ وهو نتاج عقلي وغريزي في آن واحد ـ يقوم بدوره الكامل في العمليات العقلية الثانوية، ولولا لما امكن ان نبصر نتائج تلك العمليات .

وتوضيح هـذا الامر : اننا يمكننا أن نختار احدى العمليـات العقلية التي تشكل الخط العريض لسلوك الانسان، وهي عملية التغيير الفكرية ، التي يتمتع بها هـذا النوع دون غيره، فنشاهد أن الفكر والتعقل ، يمنحه طاقة التعالـي على أي واقع يعيشه ، ويتحدد به . بمعنى أن الانسان تؤطر جانبه المادي ، أطر زمانية ومكانية مختلفة، لايمكنه بجمسه أن يتخلص منها . ولما كانت عملية التغيير تستدعي أن يحيط الانسان بالشيء المغير ، ويمسك خيوط جوانبه العديدة، وينسلخ من قيوده المادية لكي يشخص الحالة الافضل ، ـ لما كان كل ذلك ـ فقد زود الانسان بالعقل ليقوم عن طريقه بهـذا الجانب الحيوي في حياته .

فالتغيير هو سر البقاء المتطور للانسان ، وهو يعتمد على عملية التعالي عن الواقع ، والنظر اليـه من عل لتغييره ، وهذه العمليـة متوقفة على الجانب الروحي الذي لاتقيده القوانين المادية .

وبعد ذلك ، تأتي مرحلتا التخطيط والتطبيق .

كل هذه كانت عمليات يجريها الفكر ، ولكن لو تساءلنا عن

الدافع الذى يبعث الفكر الى اجراء هذه العمليات ، بما فيها من عقبات متوقعة ، فالجواب لن يكون مركزاً الاعلى الامل : أمل الحصول على واقع أفضل ، وأمل الحصانة الاقوى للنوع ، وأمل السعادة بالتالي .

فالامل ـ اذن ـ هو الروح المحركة لمسيرة الانسان الفكرية، التي تبنى عليها كل فعالياته الاخرى .

وقد ورد في الحديث الشريف أنه : « لولا الامل ماغرس غارس شجراً ، ولا أرضعت أم ولدها » .

اما ما قلنا به من فطرية الامل ، فانه يتضح بعد التأمل المركز في الغرائز الانسانيـة التي ترتبط دائماً بحركية الانسان ودافعيته . وتلك من امثال غـريزة حب الاستطلاع ، وغريزة حب الكمـال ، وغريزة التدين. فان كل هذه الغرائز وغيرها مما يرتبط بهذا المجال تعتمد على عنصر الامل، اما في أساس وجودها، كغريزة حب الاستطلاع باعتبار أن الانسان يريد أن يستطلع على أمل أن يكتشف الواقع ، واكتشافه للواقع هـو بنفسه يقوم على أمل انكشاف طريق آخر ، يمكنه من ان ينمي وجوده ويشبع نهم ذاته ، اوفي تحقيق مقتضياتها كالاخيرتين .

اما وقد ارتبط الامل بالافكار الغريزية ، فهو اذن يجد له مواضعه في كل أنماط السلوك .

فلامعنى لان يقال : بأن المنتحر، والزاهد الراهب ، والحقود على الانسانية ، كل هؤلاء أناس حرموا نعمة الامل ، ولذا ، فهم يسلكون سلوكاً منافياً للسلوك الطبيعى، ! وذلك : لان الامر على العكس تماماً فكل هؤلاء يأملون، وتتعلق آمالهم بأشياء ، غاية الامر : ان ما تتعلق به آمالهم ـ فى الواقع ـ خلاف الاشياء الطبيعية .

اذا توضح هذا ، فلنراجع انفسنا. وسوف نجد ان الطفل يشاكس هذا وذاك على أمل . وان العامل ينبعث الى عمله على امل. وهكذا التاجر والعالم وغيرهم .

ومتى ما ضؤل الامل، قلت الطاقة الحركية ، الى ان ينعدم الامل فلا يبقى دافع للعمل ، وحينذاك فالجمود .

العلاقة بين النمو العقلى والامل

يمكننا ان نراقب الخط البياني ، لنوعية الامل في حياة الانسان ونقارنه مع الخط البياني للرشد العقلي له، لنكتشف نوعية العلاقة بدقة .

ان الملاحظ ، ان آمال الانسان تكاد تكون خيالية مائة بالمائة، عندما تتحرك لديه ملكة الخيال ـ اول ما تتحرك، فتجده يبني أمجاده، ويصوغ أبطاله الذين يحتذي بهم أشخاصاً خياليين، يمزقون الارض بقبضة واحدة ! ومن هنا نجد ولع الاطفال الشديد بالقصص الخيالية، والابطال الاسطوريين !

ونحن هنا . لانعني ان أبعاد الموضوع هي هذه فحسب ! بل تشترك هذه العلاقة ، في صياغة الموقف الطفولي. والآمال الدور الأكبر ـ الى جنب هذه العلاقة ـ لغريزه حب الكمال الاصيلة للانسان ، والتي تنطلق حينذاك بلا ضابط .

وكلما ازداد النمو العقلي بعد ذلك ، اكتسبت الامال شيئاً من الواقعية ، الى أن يصل الانسان الى المرحلة التامة من الرشد، وحينذاك يكتشف تفاهة الأمال الخيالية ، وتفاهة الاشياء التي تصور من قبل وبمقتضى بيئته انها امور بعيدة المنال .

ومثال هذا: ان يتصور ابن الفقير ـ الى جنب تصوراته الهائلة الابعاد ، أن غاية ما يمكن ان يسعد به الانسان في حياته ، هو ان يمتلك دراجة نارية ، ويرسم لنفسه صوراً تعرضه وهو اسعد انسان عند ما يركب تلك الدراجة ! .

وفي هذه المرحلة بالذات ، يحاول الانسان ان يقيم آماله الماضية على ضوء عقيدته من جهة ، وظروفه الخارجية من جهة أخرى .

واذا توضحت الامال جيداً ، وتأكد الانسان من واقعيتها، انطلق يخطط بدقة للوصول اليها . فقد اصبح سلوكه حينذاك ، سلوكاً يتم وفق اعداد مسبق، وبثقة اكبر، وبدافع أقوى ، وهذه هي ارقى شروط العمل الناجح . .

ونقصد من الواقعية : الامكانية العقلائية لتحقق الامل المعين . والتي تثير في الانسان دوافع الطموح نحو الوصول للهدف الممكن في نفسه .

يقول الدكتور علي احمد علي : « ولكي يؤدي الهدف دوره الفعال في تحريك السلوك وتوجيهه ، يجب ان يكون الهدف واقعياً، يمكن للفرد من تحقيقه بجهد مناسب ومعقول »[1].

التناسب الطبيعى بين نوعى الامل والعمل

لاريب فى ان الاهداف الكبرى . تمتلك طاقة جذب كبرى ، لاتقاس اليها طاقات الاهداف القريبة والساذجة ، وتلك الطاقة ، تستدعي عملا يتناسب معها .

ويمكننا التأكد من ذلك بسهولة ، اذا قسنا هدف قارىء للقرآن، دارس له لاجل الوصول الى فهم شيء من معناه الحرفي ، وبعض قواعده ، للتوفر على تدريسها، لابناء قرية منزوية ، الى هدف انسان آخر ، يدرس القرآن ويقرأه ، لاجل أن يتوفر على معالم أطروحة القرآن ،التي اريدلها ان تنتظم كل ارتال البشرية وأجيالها في مسيرة واحدة . ان هذا الاخير ـ وهو يعلم عظم ما يبغيه ـ ليبذل من الجهد والتعب والفكر والمعاناة مالايقاس الى الجهد الذي يبذله الاول في

---

١) مجلة العربى العدد ١٦٧ السنة ١٩٧٢ ص ٥٤ .

ذلك ، وان أطلق على كليهما اسم دارس القران .

فهناك اذن تناسب بين نوعية الامل الجاذب ، وطاقة العمل المراد في سبيل تحقيق ذلك الهدف . .

عنصران مقومان للدعوات

ان كل النظريات المهمة،التي تطرح نفسها كحلول عامة للمشكلة الاجتماعية تحتاج الى عنصرين اساسين، يقومان وجودها،ويضمنان استمرار توسعها، وشمولها قطاعات اكبر من بني الانسان، ومساحات اكبر من الافكار . وهذان العنصران هما : ـ

الايمان بالمبدأ ، والعمل له . ويتخذ العمل مسارين :

الاول : العمل في سبيل نشر المبدأ كهدف مرحلي .

الثاني : العمل في سبيل تحقيق أهداف المبدأ كهدف نهائي .

فاذا لاحظنا هذا .

ولاحظنا الترابط السابق ذكره بين النمو العقلي والهدف ، وهو يرتبط بالعنصر الاول .

ولاحظنا العلاقة بين نوعية الهدف، وطاقة العمل ، وهي ترتبط بالعنصر الثاني بجانبه المهم .

اذا لاحظنا كل ذلك ، يتوضح لدينا سر اجماع كل المبادىء

والنظريات الانفة ، على أن تعطي لعنصر الامل اهتمامــاً بارزاً في اطروحاتها المختلفة . .

فهي تسعى بجد ، لان تبرز أهدافها على اساس أنها الاهداف الاكمل من حيث واقعيتها من جهة ، وكثرة عطائها من جهة أخرى، واستمرار هذا العطاء من جهة ثالثة . .

مع المبادىء الوضعية

ونظرة استعراض بسيطة لهذه المذاهب، تكفينا لتأكيد المقصود: فالماركسية اعلنت للبشرية أنها اكتشفت طريق السعادة بكل ما فيه من معالم ، وانها تخطط لليوم الموعود الذي تكون فيه « الانسانية كلها طبقة واحدة ، وتتمثل مصالح كل فرد في مصالح تلك الطبقة الموحدة .. . حيث يسود الوئام ـ آنذاك ويتحقق السلام، وتزول نهائياً كل الاثار السيئة للنظام الديمقراطي الرأسمالي »[1].

ويسرف الخيال الماركسي ، في تصور تلك المرحلة الذهبية الموهومة من عمر البشريــة ككل ، فيتصور أن أعمق غريزة مـن غرائز الانسان، وهي غريزة حب الذات، تذوب وتنصهر في المختبر التاريخي، متحولة الى غريزة حب الاخرين! وحينذاك يكون الانسان

١) المدرسة الاسلامية ج ١ ص ٥٣ .

موجوداً ملائكياً خيراً ! وبالتالي .

فلا معنى لوجود قوانين وضوابط ، وسلطة تقنينية، وأخرى تنفيذية ! فكـل هذه الامور ، انما تتعلق بمرحلة ما قبـل الفردوس الموعود، اماوقدبلغتهاالانسانية ،فلامعنى ولامبررلوجود الدولة ! ! انما هي السعادة والعدالة تقوم بصورة طبيعية بين البشر . . . الىما هنالك من الخيال المنسوج ! !

ولاجل أن تؤكد واقعية هذهالنتيجة الحتمية ، فقدهداهاذكاؤها لانتجعلها منمقتضيات القوانينالطبيعية الحتمية التيلاتقبل التبديل ومن هنا فقد عمدت الىالتاريخالانساني، تقسمه الى أدوار،محاولة أن تضع في رحم كل دور عوامل تآكله وتفسخه الاتي . . وهكذا تتسلسل الادوار وفق قوانين المادية التاريخية ، حتى يصل الـدور للمرحلة الرأسمالية ، ـ وهيالمرحلة التيقامت الماركسية كحركة سياسية أصلا لاذابتها . ثم استعانتبالتصور الفلسفيللتاريخ، لتسند أهدافهـا السياسية هذه ، كمـا هو واضح لمن درس تاريخهـا بعمـق .

ومن ثم ركزت على هذا الدور ، وحللته كمـا تشاء ، متصيدة له بعض الامثلة ، ومستعينة بالاثار المشؤومة لنفس النظام، محاولة بذلك أن تبرر حركتهابأنها تساند حركة التاريخ، التيما انتتفاعل مع الجمـاهير ذات المصلحة ، وبصورة طبيعية حتى ينتج الامـر

الانتصار . ! وعندما أفلحت في مرحلتها الاولى ، بدأت ترسم ذلك الهدف المعسول ، لاجل أن تبرر ستارها الحديدي المقيت، في مرحلة اسمتها « الاشتراكيـة » داعية في هذه المرحلة ، الى « بروليتاريـة العمال »، والضغط والقوة والعنف الثوري، واعدة الانسان بتحويله في النهاية الـى انسان يصلح ان يدخل دور الشيوعية التي لن يجد فيها الا البرد والسلام . . !

اما الراسمالية : فهي بدورها ايضاً ، لم تقم الا على أساس الوعود العـريضة ، وفي ظل قادة كانوا يصفون للبشر الجنة الموعودة ، ويعدونهم بالخلاص من نير الحكام والاقطاعيين والسادة، والحصول على اروع جـوهرة ، ركب حبها في اعمق اعماق الانسان وهـي « الحرية » . . !

وهكـذا وعدت بالمجتمع الاقتصادي الحر . والمجتمـع الفكري والسياسي الحـر : حيث لاضغط من اي جهة ، وحيث الفرد فيـه يحصل على ما يريد ، وفقاً للمجالات المفتوحة له على مصراعيها . !

وكان سندها في هذه الامال ، نفس نزوعه نحو الحرية،وطلبها بأي ثمن ، محاولة بذلك ، ان تضفي عليها ثوب الواقعية . !

ولايهمنا الان ، ذكر ما لاقاه العالم من هذين النظامين بعد ذلك، من مآس مروعة ، ودمار فكري واخلاقي ، بقدر ما يهمنا ان نؤكد

ان كليهما ، أكد على عنصر الامل فيه ، وحاول جهده ان يضفي عليه ثوب الواقع، سواء بالاستناد الى قوانين التاريخ، كما فعلت الماركسية او الاستفادة من النزعات الداخلية للانسان ، كما فعلت الراسمالية، مما يؤكد لنا ما قلناه .

الفصل الاول

الامل فى النظم الوضعية

* حدوده

و

* موهناته

الامل فی النظم الوضعية حدوده ، وموهناته :

رأينا ، ان كل النظم التي تحاول ان تجد لها اتباعاً ، تشعر بأن الامل ، هو الديناميكية المحركة للاتباع ، بل العامل الرئيس فی جلب الاتباع انفسهم اليها .

والان ، نحاول ان نخطو خطوة اخرى من البحث ، فندرس امكانيات عمل هذا العنصر في الانظمة التي يخترعها الانسان، والتی تسمى بـ « الوضعية » وهي التی لا ترتبط بأي عنصر غيبي ، ولكن اعتمدها الانسان ، لاجل ان يرسم لنفسه اسلوباً يوصله للسعادة ، بغض النظر عن هدى السماء . وبعد هذا ، ننفذ الى فاعلية الامل في الاسلام وطاقاته ، بعدان نؤكد، على ان الاسلام هو الصورة الصادقة للنظام المستند الى قاعدة غيبية أصيلة واقعية .

واهم صفة يمتلكها هذا العنصر في النظم الوضعية هي «التحديد المادي» .

وذلك ، لان الانظمة الوضعية كلها ، انما تخطط للجانب المادي من حياة الانسان ، ولا تعترف بأي تأثير لاي عامل غيبي ، في تخطيط مصيره وتقريره .

ولذا ، فغاية ما يمكن ان يعد به النظام المادي ويتعهد به ، هو أنه ، يستطيع أن يوفر للانسان حياة سعيدة هانئة ، يأكل فيها ما يريد ويشرب كذلك ، ويعيش في مسكن آمن ، يحترمه مجتمعه ، ويضمن له حقوقه من تعليم وصحة ، وتقاعد في الشيخوخة وما الى ذلك .

هذه هي غاية ما يمكن أن تمنحه النظم الوضعية للانسان ، ولكن بعض هذه النظم لما لم تجد ذلك كافياً لاشباع طموح الانسان ، واصطدمت بواقع شوقه لبناء الانسانية الموحدة ، فقد تجاوزت هذه الغاية بعد أن مهدت لهذا التجاوز بالقيام بطرح فلسفة ، ومفاهيم تتنافى والمفهوم المادى الذى بنيت عليه اساساً . فأخذت تقوي عناصر التضحية ، والعمل فى سبيل الجماهير ، والكدح فى سبيل رقي المجتمع ، والنضال لتحقيق الديمقراطية ، والعمل على تغيير العالم ، ولو فنيت الاشخاص الفردية للانسان ، وذبحت الالاف ، وديست الحقوق الشخصية ، وامتهنت ايما امتهان . . ! وضرب النطاق الحديدى حول الحريات . . ان كل هذه الاشياء ، لاقيمة لها

فى حساب تحقيق الهدف الا بعد ، وهو صياغه عالم شيوعى مثلا ، ولو فني ثلثا العالم ـ على حـد تعبير بعض قادة الشيوعيـة ـ ، او التحضر والتمدن للانسان كل الانسان ، حتى ولو ذبحت فى سبيل رسالة الرجل الابيض هذه شعوب ، واحرقت مدن ، وامتصت دماء ودماء . !

والحقيقة انها شعرت بان اهدافها لن تحقق لو انحصرت بالشكل المادى . فانها لاتكفى مطلقاً لبعث مفاهيم الايثار والتضحية والولاء الصادق وبعد النظرة ، بل لبعث اي مفهوم اخلاقى أو عملى . لذا، فقد عمدت الـى طرح هذه الشعارات ، متناقضة مع اسسهـا هي ، سواء كانت اعتمدت عليها ، أو اغفلتها وهى متعمدة، اذ أن كل ذلك لايتلاءم والاعتقاد بأن الحياة الانسانية محصورة فى هذا الشوط وهو الحياة الدنيا فقط . فاذا مات الانسان انقطع عن اية علاقه لـه بأى شيء ، فهـو العدم المحض الذى لايصله أى خير ، ولا يوصل أى خير للاخريـن ، ولا يحس حتى بكلمات المدح والذكر العالـي الطنان ، ان كان الذكر العالى لقادة هذه النظم أعلى من صرخات اللعنة الصادرة من المعسكر الاخر . !

الاعتراض بملاحظة الواقع التطبيقى

فان واجهنا أحد ـ معترضاً : بأن هذا المعنى يختلف مع الواقع

التطبيقى ، حيث نشاهد اولاء الـذى قدموا اعناقهم الى المشانق ، وعملوا جهدهم في سبيل انتشار مبادئهـم ، وناضلوا سنين متطاولة في ذلك .

والجواب

انانقول لمثل هذا : أليس تحليلنا السابق، والتناقض القائم بين البناء والاساس حقيقة ؟ فان كان كذلك فيجب أن نبحث عن العلة فى أساليب الاغراء التى تتبعها هذه المذاهب ، والاهداف الشخصية للقادة الذين يمتلكون زمام هذا الهمج الرعاع،وفي الظلم والاجحاف الشديد ، الذي يواجهه اولئك الذين استهدفهم نظام معين من النظام الاخر ، وفى المفاهيم الخاطئة التى قدتستحكم في طبقة من الناس حول الوطنية والقومية وغير ذلك، فتمنحها صفة ألوهية محدودة ، وأخيراً فى بعض صفات السوء التى تتحكم فى امثال أولئك الذين اعتنقوا مثل هذه المبادىء كالكبر ، والعناد ، والصلف .

كما انايجب ان لاننسى دور العقدالتى تنعقد في نفس الانسان نتيجة عوامل عديدة، فتعميه وتدعه لايأبه لكل شيء الا تحطيم مايتخيله عدوه ، ولو فقد كل شيء. وهل نسينا الحوادث المتكررة التي يضر الانسان فيه نفسه أكبر الضرر لالشيء الاليضر عدوه جراء ذلك ولو بأقل الضرر؟ وقدحدثنا القرآن عن مثل ظواهر العناد والتعقيد كثيراً

ومن الموارد التي يذكرها مورد اولئك الذين قالوا « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم »[1] انه منطق العقد فبدلا من أن يقول هؤلاء اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا للايمان به، يقولون « فامطر علينا حجارة من السماء » .

كما ان للطمع المالي والاغراءات المنصبية دورها الفعال وهل نسينا منطق المرتزقة في (افريقيا) وهو الموت في سبيل الذهب ؟

وكذلك يمكننا ان نضيف الى جنب هذه العوامل الدور الذي يلعبه التحزب وتعميق الطاعة الحزبية بشكل يفقد الفرد معه شخصيته ويتحول الى آلة طيعة بيد الحزب او الفئة المسيرة .

واخيراً فانه يمكن ان نضيف الى ذلك عامل الغرق في الخيال الكاذب والعيش على موائد أمل التمجيد، حيث يترنح الانسان حينما يتصور الانسانية يوماً ماستصحو على تضحيات هذا البطل فتنصب له تمثالا في ميدان ، او تطلق اسمه على ساحة كبرى ، أو تقيم له احتفالات سنوية متكررة . .

لا يمكن للاغراء ان يحل محل الدين

فان ادعي بعد ذلك : اننا نستطيع ان نقوم بأداء ما يؤديه الدين

---

١) الانفال : الاية ٣٢ .

في حياة الانسان ، بأساليب الاغراء هذه ، رغم ضحالتهـا ، فالغاية تبرر الوسيلة . ! فان جواب ذلك واضح للمتبصر . اذ أن مثل هذه الاساليب ، انمـا هي وسائل وقتية المفعول بنفسها ، وتعتمـد على التخدير الاني للفكر الانساني . في حين ان أساليب القرآن تتصف بالدوام والعمق في ضمير الانسان وفطرته، واستيعاب مختلف الظروف، اي العمل تحت اي ظرف كان .

ومن هنا، فلا مجال للمقارنة بين اساليب الدين، وهذه الاساليب، هذا بالاضافة الى ان الروح العـدوانية الضيقة ، واللااخلقية المقيتة التي تنشرها هذه الاساليب ، هي مما يؤدي الى القضاء تدريجياً على نفس الفكرة التي تتخذ هذه الوسائل لنيل مآربها .

على انا ، يجب ان لاننسى أنه ما من موقف وقفه احد انصار المبادىء المادية يمكن ان يقارن الى بعض المواقف الصارمة التي وقفها انصار العقيدة الدينية .

ان الخيال ليكاد يعجز عن امثال مواقف النبي العظيم، وأصحابه الكرام ، وفي طليعتهم علي اميرالمؤمنين ، في مجال التضحية بكل غال ورخيص في سبيل تحقيق الهدف .

وهل تقاس مواقفهم الـى مواقف الحسين واصحاب الحسين مثلا في صبيحة كربلاء ؟ !

ولا معنى لانتقام جان دارك مثلا أمامنا ، بعد ان اتضح لنا انها

المرأة التى حركتها تخيلاتها ، والارواح الخفية التى آمنت بأنها تناديها نحو المجد . على انها على أية حال ، لم تكن ذات عقيدة مادية لتكون مادة للاعتراض .

اهم موهنات الامل المادى

فأهم مافى الامل المادي من موهنات، يمكن ان يلخص فى نقاط:

أ ـ انـه هدف مرحلى ، لايمتلك مـا يمتلكه الهدف البعيـد الكبير الذى يمكن للاسلام ان يستهدفه من تشريعاته ، من طاقات دافعة ، ومن نظرة شاملة . ان مثله ـ والحال هذه ـ مثل قوم مروا بمرحلة بين منزلين ، ثم لم ينظروا الى أبعد من ذلك ، ولم يستهدفوا الا راحة موقتة فى هذه الفترة فقط . وهل يقاس اولاء بمن امتلكوا فى ذهنهم ابعاد رحلتهم كلها ، فركزوا على ضوئها ، ونظروا الـى منتهاها الذى يصوره الاسلام بشكل لايتصور فوقه رقي او كمـال ؟

وهـذه المرحلية هى التى أشرنا الى انها لاتقوم بمايتطلبه اى نظام مبدئي من عمل وتضحيات .

ب ـ انـه ينسي الانسان جوانبه الاخرى غير الماديـة . . ففي الانسان جوانب أخرى لاترتبط بالمادة مباشرة ، وانما ترتبط بالعقل والفكر والوجدان. فاذا استهدفنا فى حياتنا هدفا يؤمن حاجات جزء من كياننا، فانا نكون قد اخللنا بالتوازن الروحي المادي، المطلوب حقا فى

حياة الانسان . ولهـذا الاخلال آثاره النفسية والفكرية ، فضلا عـن الآثار الاجتماعية العظمى له . ونحن نعلم ان الانسان اذا ما ربى تربية صحيحة ، ونميت لديـه الاحساسات المعنوية ، او ما يسميه احد كبار العلماء بـ« الاحساس الخلقي بالحياة » فان ذلك كفيل لان يدفعه وبصورة منتظمة بل ومتصاعدة فى الشدة نحو العمل الجاد المجهد، كما نرى في اصحاب المبادىء . في حين نجد ان الذين لا يستهدفون الا الاشباع المادي ، بعيـدون تماما عن ذلك المستـوى السابق . أنهم لا يحسون بنكهة معينة لعملهم، اللهم الا كما تحس الحيوانات بنكهة طعامها « و الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام » ففرق في الاداء ـ فضلا عن النتائج ـ بين أن يقوم الانسان بعمل ما يحس من ورائه بانه أشبع لذة موقتة ، وبين أن يقوم بنفس العمل وهو يعلم ان ذلـك جزء من حلقة تنتهى الى سعادة أبدية ، ورقي معنوي رائع .

ج ـ انه لا يمتلك خاصية التجميع على طريق واحد . وذلك فان اى نظام يدعى لنفسه ، انه منفذ الخلاص للمشاكل البشريـة ، لا يمكنه ان يكون محدودا بحدود خاصة . والا كان علاجا موضعيا قد يضر ـ ويضر بالتأكيد ـ بالمواضع الاخرى، فلاجل ان يكون امينا مع دعواه ، عليـه ان يخطط للعالم والاجيال البشرية المعاصرة ـ على الاقل ـ ، وتخطيطه يتطلب اول ما يتطلب ، هدفاً عالمياً. وقد

يفلح في اصطياد هدف براق جامع ، يسميه العالم الحر او العالم الشيوعى أو أو . . . ولكنه يجدنفسه في النهاية محكوماً للمصالح المادية التى يسعى جادا لتحقيق مقتضياتها ، وهـذا يعنى انه يظل تتقاذفه رياح المصالح الشخصية . وان تجاوزنا عن ذلك فالمصالح الضيقة لمجتمع دون آخر . . . وهذان امامنا ، النظامان الرأسمالى والاشتراكى وكلاهماينادياناب بهدفين براقين،الاول يدعوالى الحرية ، والثانى يدعو الى الحياة التى ليس فيها استغلال . ! هذانالنظامان هل سلما ـ فى نظرتهمـا المبدئية وتطبيقهما ـ يوماً من الايام من الاهواء الشخصية اوعلى الاقل الاهواء الضيقة لاحد المجتمعات ؟ ان نظرة واحدة الى عملية التعامل الاجتماعى القائمة بينالنظامين ، بل وبين اتباع النظام الواحد ،كافية لاشعارنا ، بان الاهدافالمادية رغم كل بهرجتها لاتستطيع انتجمع البشرية كلها على مقصد واحد في طريق واحد . . وستظل البشرية تبحث وتبحث بمقاييسها التى تخترعها هى .. وستنكشف لها الحقيقةبعد لاى .. وانهلاعلاج لها الا بهدىالسماء « ومن يهدالله فهوالمهتد » وان حياتها الدنيا قبلحياتها الاخرى لنتجدلها رونقا انسانيا الافي اطاره ، وبدون ذلكفالضنك والنكر . « ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » . . .

ولن نسهب هنا في عرض النماذج الواقعية والتاريخية لهـذه

القضية ، بل نكتفي بالاشارة، اقتناعاً منا بان القارىء الكريم لايفوته النظر الى الاختلافات المصلحية الضيقة بين روسيا والصين مثلا ، وبين امريكاوفرنسامثلاآخر ، بل بين قادة كل من هذه الدول المبدئية على زعمها ليتأكد ، ان الاهداف المادية لشخص ما ، او طبقة ما ، لايمكن ان تحدها حدود وتمنعها من التوسع ضوابط، مادام الجانب المعنوي قدابعد عن مسير الانسان، وهذا مايمكن ان نسميه بالطمع. فلن تكتفي الطبقة المسيطرة مثلا على الحكم في بلدما بتوفر اسبابها المادية، وانما تحاول ان تستزيد وتستزيد ، فتسلب الطبقات الاخرى كل حقوقها ، بل تدفعها لذة الانتقام الى الاعتداء على وجودها وسلبها أقل ما يمكن ان تقوم به الحياة الانسانية . في حين نلاحظ أن الأهداف التى تسمو على مستوى المادة ، تمتلك من الضوابط الدقيقة مايمكنها من ايقاف اي متجاوز عند الضرورة عند حده كما سياتى شرحه ان شاء الله تعالى .

د ـ افتقاده للضمان فى مرحلة السير اليه اولا . وفى مرحلة ترتب النتيجه ثانيا :

ونقصد من ذلك ان الهدف المادى مهما كان ، لا طريق الى تحقيقه ، ولا ملزم بالسير نحوه ، الا الرغبات النفسية والقانون . والرغبات النفسية ليست وفية للهدف الواحد دائما ، بل هى متقلبة مع اية ريح تميل بها الى اهداف اخرى ، او هي متوقفة عند اقل

شبهة تثار امامها . واما القانون فهو صنيعة الانسان ، متى شاء غيره ان استطاع . هذا من جهة حتميته ، واما مع غض النظر عن ذلك، فغير خاف ، انالقانون ، انما يعامل الانسان على حدأدنى من الطاعة، ولا يمكنه ـ باية حال ـ أن ينفذ الى اعمق جانب وأهمه في الانسان، ذلك هو الجانب الخفي في تفكيره ، والذى يشكل ضمانة الدفع الضرورية لكل عمل متواصل مترابط يتطلب سعياً وصبراً للوصول الى غايته المنشودة ، فيكون القانون اذن عاجزاً عن تقديم الضمانة الكاملة للتطبيق. هذااولا. واما الامر الثانى الذى يفتقد الهدف المادي على أساس منه ضمانة التحقيق، فهو الترابط العلي بين سلوك الطريق المعين من قبل المبدأ ، وحصول الهدف المعلن من قبله . . فانه يظل الهدف الذى يرفعه اى مبدأ ما ، مجرد شعار وأمل غير مرتبط بالواقع ، مادام معرضاً لاحتمالات كثيرة منها الخطأ فى الاجتهاد الذى تصور الترابط ، ومنها تبدل الظروف التى يصبح معها الترابط بين السبيل والهدف واهياً ، الى غير ذلك .

فى حين يسلم الهدف الديني من مثل هذه النقاط الموهنة . فالانسان المسلم مثلا ـ كما سيأتى ان شاء الله ـ يشعر تماماً بانه مرتبط بسر الكون والحقيقة التى ليس فوقها شيء . وانه ان سلك الطريق المرسوم فانه سيصل حتماً الى النتيجة وان كان أخطأ الطريق فى الواقع .

وسنرى ، ان المسلم ينقطع رجاؤه الا من الله تعالى . ويعتقد ان غير الله لاقيمة له في أية نتيجة . وهذا ما نراه واضحا في الدعاء الذي يعلمه الامام لاتباعه اذيقول العبد فيه مخاطبا ربه : « ولو رجوت غيرك لأخلف رجائي » .

ه ـ الفشل الظاهري الاول يكفي لزعزعة الثقة بالمبدأ في مجال تحقيقه للهدف. وذلك امر مهم جداً يسلم منه الهدف الديني. وتوضيحه هو : انه لو افترضنا ان مبدأ مادياً حمل لواء دعوة الى هدف معين ودعا اليه الانسانية كلها ، ثم نهض بالامر وامتلك زمامه في منطقة ما، ولكنه فشل في تحقيق ما كان يدعو اليه ، فانه حتى لو كان الفشل نابعاً من ظروف خارجية ، فان ذلك بلاشك ، يوضح عدم امكانياته في تحقيق ذلك الهدف للعالم كله . . في حين لايكون ذلك موجبا لاي وهن او ضعف في اتباع الهدف الغيبي . اذ لايهم اولئك النصر والهزيمة ماداموا قدادوا واجباتهم اداء كاملا . لانهم يعلمون ان النتيجة لهم « والعاقبة للمتقين » .

مثال رائع

وتحضرني وانا امر بهذا الجانب كلمة قالها بطل الاسلام الخالد الامام امير المؤمنين عليه السلام وعبر بها عن شعور المسلم الواعي الاصيل ، بانه المنتصر مهما كانت النتيجة الظاهرية .

فحياته عليه السلام في حساب الموازين المادية ـ خسارة مـا بعدها خسارة ـ ليس فيهـا الا التعب ، والا العناء ، والا الجهاد ، المتواصل والخسران الشخصي المادي، وتألب الاعداء، والاصدقاء، وغير ذلـك . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فهو يلمح مستقبلا مظلما كئيبا مخضباً افقه بدماء اولاده الطاهرين .

كل هذا يحسبه امير المؤمنين ، في لحظة رائعة من لحظات تهجده ، والـدم يخضب شيبته الكريمة ، وهو في محراب مسجـد الكوفه ، وسم السيف ينفذ الى اوصاله ، يحسب ذلك علي عليه السلام ، ثم ينطلق بقولته الرسالية الواعية الخالدة : « فزت ورب الكعبة » .

نعم انه الفوز الكامل : ان يقوم الانسان الواعي الهادف، لاهداف تسع الوجود كل الوجود بما عليه من واجبات ومهمات وتضحيات فيؤديها خيـر اداء وفوق مـا تتطلب ، ويعود الى ربه هادئاً مطمئنـا واثقاً حقاً من العطاء الخالد الذي ينتظره .

ولعمري هل يقاس مثل هذا الموقف الى موقف قادة الشيوعية او النازية ، او ما الى ذلك من مبادىء مادية ، والذين ما ان شعروا بهزيمتهم حتى رأيتهم يتهافتون على الانتحار . . ! !

و ـ قطع الصلة الواقعية بين الجيل الحاضر والاجيال الماضية. وهذا جانب مهم في مجال تعداد موهنات الاهداف المادية . فكلنا

يعلم ان الاهداف الكبرى ـ والمفروض ان الاهداف المادية كذلك اذ عرفنا انها اهداف عالمية ـ لايمكن تحقيقها بجيل واحد ، وانما قد يحتاج الامر الى اجيال واجيال . فما من مبدأ عالمى امكن ان يحقق اهدافه العظمى في اطار جيل واحد ، بل مامن مبدأ ادعى ذلك. وهذا يتطلب حياة دائمة لكل افراد المسيرة .

وقد قلنا : ان هذا الامر يتناقض مع الاساس المادى للمبادىء المادية باعتبار أنها افترضت فوائد تصيب الانسان بعد موته ، مع ان ذلك خرافة فى نظرهم ، وفى هذا المقطع نحاول ان نشير الى نفس النقطة من جانب آخر ، وهو جانب الجيل الاتى وتأثره الفكرى والعاطفى بالجيل السابق . . فلاريب فى ان كل جيل بنفسه يمتلك منابع الطاقة المحركة التى قدلايملكها اولا يملك مثلها الجيل الاخر. واقصد بهذه المنابع امثال وجود القائد المحنك الذي يستطيع ان يحرك الجماهير بطاقاته ، او وجود الفرقة المنظمة المحكمة التى يجد قدمها وتماسها بالامة له مساقط فى عواطفها لايمكن ان تنمحى احياناً . وذلك ملحوظ فى الامة التى امتلكت قائداً معينا اعطاها كل ما يملك ، وعاش معها آلامها وآمالها . فان هذه الامة ستظل بعد وفاته تعيش الى زمان يطول او يقصر ـ حسب قوة التأثير ـ على بقايا شخصيته ، وانشدادها بها.

واحسب اننا بهذا المثال قد اعطينا النموذج العالي ، ويمكننا

ان نجد له نماذج على مختلف المستويات حتى نصل الــى التأثير الذى يتركه أب حازم حليم متزن ، فى ابن نما ومثله الاعلى ذلك الاب ، او معلم عالــم أمين مرب فى تلميذ تربى على يده واستقى أهدافه من تعليماته ، واخيرا صديق ودود عاقل ذو شخصية جذابـة تشد اليها نفوس اصدقائه وتربطهم بهربطا يظل يمتلك القوة الشادة حتى بعد وفاة ذلك الصديق .

ولو تعدينا هذا الارتباط المباشر بين الجيلين الماضى والتالى، فانا نشاهد عملية ربط اكبرمن ذلك ، يقوم بدور الوسيط فيها الفكر والقلم البناء ، حيث يقدم القائد الفكرى مثلا نتاجه الــى التاريخ ويسجله التاريخ فى صفحاته الخالدة ، ثم تأتى اجيال واجيال تتملى ذلك النتاج وتعشق تلك الروح العالية التى ابدعته ، وتروح تستمد منها العزم والاخلاص ، وتناجيها فى خطواتها الحياتية .

اننا نؤكد على ان لكل مابيناه من انواع الانشداد تأثيره الفكرى تارة ، والعاطفى أخرى، والاثنين معامرة ثالثة . وذلك لخلق دفع وعزم واصرار طموح للعمل . هذا هو الامر بغض النظر عن ما نريد تطبيقه عليه. واذا رجعنا الى مجالنا هذا نجد أن الاهداف المادية لاتملك او بالاحرى اتباع المبادىء المادية لايجدون فى انفسهم ذلك الدافع القوي المؤثر وذلك الارتباط الا فى الحدود العاطفية الخيالية فقط ، وهم يشعرون بذلك ـ ولو فى لحظات وعيهم لانفسهم على الاقل ـ وهذا الشعور

كاف للتقليل من الانشداد ان لم نقل بكفايته للقضاء عليه . .

وفى هذه النقطة نجد من الطريف حقا بل من موجبات السخرية ان يقف قائد مادى على جسد قائد آخر فيقسم له بشرفه انـه سينتقم له ،او انه سيبقى حياً فى القلوب أو بقوله : « نم قرير العين فجيلك الذى ربيته على مبادئك سيسير على نفس الطريق ... !كذا» ان ذلك يتناقض مع عقيدته بالروح او الحياة الاخرى و و . . الى غير ذلك.

اما اذا انتقلنا الى الطرف الاخر، الى محيط الدين والأهداف الدينيـة ، فانا سنجد ذلك اساساً من اسس العقيدة . فالمسلم يعتقد فى اصول عقيدته ان الانسان يمكنه ان يعيش عالماً غيبياً آخر غيرما نحس ونتصل به اتصالا مادياً . . وهناك فى ذلك العالم يمتلك بصراً جديداً ، ونفوذاً علمياً فريدا غريبا على عالمنا . . فهـو اذن يرقب من خلفهم وراءه بكل دقة وهو يفرح واقعاً كلما عمل الاخـرون له عملا خيراً ، ويسوؤه جداً ما يطلع عليه من انحراف .

فالجيل التالى في ظل العقيدة الاسلامية يعتقد بكل جـد ، ان الجيل الماضى وفيهم القائد الفلانى الكبير يرقبهم فى كل خطواتهم ويلاحظ كل انمـاط سلوكهم . . . بل يمكن القول بأن الامر يزداد تأثيراً بعد الموت عنه في حالة حياة القائد . فلربما كانت حياة القائد المادية تمنعه عن مراقبة انواع السلوك التى كان يقوم بها اتباعه ، ولكنه بعد موته يمتلك تلك الطاقة التى يمكنه بها ان يطلع ويراقب.

وسيأتى ان شاء الله حديث يرتبط بهذه النقطة ، عندما نبحث الامل فى العقيدة الاسلامية والمفاهيـم القائمة على اساسها ونربط بينها . وهناك نشيرالى عنصر الانتظار وتأثيراته فى حياة الجماعة المسلمة .

الفصل الثانى

الامل فى الاسلام

* رأى بعض المراجع اللغوية
* الاستعمال فى النصوص الشرعية
* الترابط بين اجزاء الاسلام
* روافد الامل فى العقيدة

الامل فى الاسلام

يحسن بنا قبل ان ندخل فى بيان مظاهر الامل ڧى الاسلام او منمياته على الاصح ،يحسن ان نحدد مفهوم كل من الامل والرجاء والتمنى ، كمقدمة لفهم النصوص التى ترد فى البحث .

ولاول وهلة ، يبدو انالامل يعنى ما يتوقعه الانسان او يتطلب ويتصور وقوعه بما يتعلق بالامور المادية فى هذه الحياة الدنيا فى حين ان الرجاء يتعلق بالامور المعنوية التى تدخر للانسان فىعالم الغيب . ويختص التمنى بعد ذلك بالظن الكاذب والتخمين الخادع. ولكن هذاالتصور الاولي الذىاوجدته كثرة الاستعمال فىهذه المعانى غير صحيح كما سيتوضح بعد قليل .

رأى بعض المراجع اللغوية :

يقول المحقق الكاشانى :

الرجاء: الفرح لانتظار محبوب . فان حصل اكثراسبابه صدق اسم الرجاء ، وان فقد فالغرور ، فان شك فالتمنى .

ويقول فى مجمع البحرين : الامل بالتحريك . . . الرجاء... وهو ضد اليأس ومنه قوله تعالى « وخير أملا »[1].

وقال الراغب الاصبهانى فى مفرداته :

« والتمنى تقدير شيء فى النفس وتصويره فيها . وذلك قد يكون عن تخمين وظن ، ويكون عن روية وبناء على اصل ، لكن لما كان اكثره عن تخمين ، صار الكذب له املك . فأكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له »[2].

وقال « والرجاء ظن يقتضى حصول ما فيه مسرة » وعلل تفسير الرجاء بالخوف فى قوله تعالى : « مالكم لاترجون لله وقاراً » بأن الرجاء والخوف متلازمان .

وهكذا رأينا ان بعضها يفسر الامل بالرجاء ، وبعضها الاخر يجعل الرجاء المبتنى على اساس اصل معين نوعاً من التمنى وان كان الاستعمال فيه قليلا .

---

١) ص ٤٢٣ الطبعة القديمة باب الامل .

٢) ص ٤٧٦ المفردات .

الاستعمال في النصوص الشرعية :

يمكننا بملاحظة النصوص الشرعية ان نخرج بالنتيجة التالية وهى : ان الامل والرجاء والتمنى كلها تستعمل فى معناها اللغوى وهو طلب الحصول، وذلك اعم من حصول الشيء الدنيوى الاواخروى والقرينة اللفظية او الحالية ، هى التى تحدد ايهما المراد .

فنحن نجد الى جنب النصوص التى تذم الامل من قبيل «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامـل » الحجر « ٣ »وما نجده فى دعاء ابى حمزة الثمالى الذي علمه الامام السجاد عليـه السلام اياه ، اذ يقول في مقام المعتذر : « فقد افنيت بالتسويف والامال عمرى » . ومـا ورد فى دعـاء كميل الذى علمه الامـام امير المؤمنيـن عليه السلام لكميل بن زياد : « وحبسنى عن نفعى بعد أملى » وقول الامام عليه السلام : « اخوف ما اخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل» النهج ص ٧١ ج ١ ، والمقصود بها طبعاً بقرينة الحال الامل الدنيوى الـدنيء ، نجد الى جنبها نصوصا تمدح الامل مثل: الاية القرآنية « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » الكهف ٤٦ « عظم يا سيدى أملى وساء عملى فاعطنى من عفوك بمقدار أملى » بل يعتبر الامام (ع) الدنيا دار امل ، كما جاء :

« الا وانكم فى ايام امل من وراءه اجل فمن عمل فى ايام أمله

قبل حضور أجله ، نفعه عمله ولم يضرره اجله » .

ومن دعائه يقول: « ان تؤمل فخير مؤمل » وفي موضع آخر : « وقد ساقني اليك املي » والنكتة في الذم والمدح كلها تكمن في متعلق الأمل ، فان كان في اطار مادي محض اي مجرد عن الاستعانة بالله تعالى فانه غرور وضياع ، كما تقدم في شرح الأهداف المادية، وان كان المتعلق أخرويا اودنيوياً طريقيا الى الاهداف المعنوية فهو الخير كل الخير[1].

يقول عليه السلام في النهج ص٩٨ ج١ : « ان الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد اليها » ، « أن النعمة لن تسلب الا بكفر يؤملهم بخير الدنيا ظاهراً » .

وسيأتي في خلال البحث نصوص واحاديث توضح هذا المعنى.

وهكذا لفظ الرجاء فقد استعمل في معناه اللغوي، ولكنا وجدنا ان الغالب في استعمالات النصوص الشريفة لـه ، هو فيما اذا كان متعلق الطلب امراً مشروعاً وغالباً ما يكون معنويا اخرويا ، كما يلاحظ في النصوص التالية :

« فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون » (١٠٤ النساء) .

---

١) -- يقول امير المؤمنين عليه السلام « والبصير منها متزود ، والاعمى لها متزود » .

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً » (١١٠-الكهف).

ويقول امير المؤمنين عليه السلام : وقد رجوتـك دليلا على ذخائر الرحمة و كنوز المغفرة » .

« الحمد لله الذى لا ارجو غيره ولـو رجوت غيره لا خلف رجائى » .

« يارب ان لنافيك أملا طويلا كثيراً ـ ان لنا فيك رجاء عظيما» (دعاء ابى حمزة الثمالى) .

اما التمنى فهو يستعمل غالبا ومع القرينة فى الامور الدنيوية، وقد يستعمل فى المعانى الصالحة ، مثل ما ورد فى الدعاء «وبلغنى مناى وحقق بفضلك أملى ورجائى » .

وهكذا تكـون النتيجة ان كل هذه الالفاظ تستعمل فى الامـل الصحيح فى نظر الاسلام وان كان الاخير غالبا ما يستعمل فى الامور الدنيوية .

بعـد هذه الالمامة السريعة بالالفاظ ننتقل الى موضوع بحثنا الرئيس وهو استعراض روافد الامل ومقتضيات فعاليته فى الاسلام . ومن الطبيعى ان نحاول التعرف على منابـع الامل فى مجالين : الاول ، مجـال العقيدة والثانى ، مجال القوانين والمفاهيم المبتنية على اساسها. ونحاول ان نبحث عن الروافد فى كل منهما على حده، بعد الاشارة الى نكتة مهمة جداً فى البين هى :

الترابط بين اجزاء الاسلام :

فاننا نضطر في كثير من الاحيان لتجزئة الاسلام لاجل التوضيح والبرمجة في البحث . فنبحث مثلا عن اهميــة الاقتصاد الاسلامي واهمية النظام الجنائي وغير ذلك كل على حدة . وذلك على مافيه من منافع قد يخل باعطــاء الصورة الكاملة عن الاتجاه الاسلامي ، باعتبار ان هناك ترابطاً وثيقاً بين كل اجزاء الصورة الاسلامية العامة، بحيث ان التجزي ، يخل قطعاً بها ، باعتبار ان كل ما تحويه العقيدة والتشريع والمفاهيم منطلق من زاويـة تقييم واحدة ، وملحوظ في الكل منها وجود الاجزاء الاخرى لكي تثمر ثمرتها الكبرى في صياغة انسانية متكاملة .

وهكذا نحن هنا في بحثنا يجب ان نلتفت الى التركيب بين روافد الامل في العقيدة وفي المفاهيم لكي تتوضح لنا الصورة كاملة. ولا يكفي في معرفة ذلك دراسة كل على حدة ، بل يجب ملاحظة كل جزء مفهومي مثلا في أطار العقيدة التي يقوم عليها ، وفي جو المفاهيم الاخرى التي ترتبط به لنعرف ثراء ذلك الرافد .

روافد الامل فى العقيدة الاسلامية :

يجد الانسان المتبصر فى العقيدة الاسلامية منابع عظمى للامل الواقعى المحرك المطلوب لكل سلوك .. . ونحن هنا سنستعرض انشاءالله موجزاً عن معالم العقيدة بما يرتبط وهذا العنصر ، بأسسها الثلاثة ، التوحيدوالنبوة والمعاد، وتفريعاتها . ثم نعقب ذلك ببحث حول القوانين التى يحدثنا القرآن عن انها تحكم هذا الكون بالاضافة للقوانين الطبيعية . ثم نستعرض النتائج التى يمكن ان نستخلصها بعد الوقوف على مثل هذه الامورواثرها فى رفد الامل المحرك عند الانسان .

التوحيد :

وملخص نظرة المسلم الى الواقع الموضوعى[1]، ان كل ما

---

١) سنحاول هنا الخلط بين الصفات الذاتية والفعلية لسبب موضوعى.

هناك في الكون من موجودات وحوادث ، سواء كانت واقعة تحت الحس الانساني أو غيرقابلة للوقوع تحته ، وسواء كانت فياعماق المحيطات ، اوفي آفاق السماوات ، ان كل مافيالكون علىالعموم يرتبط بمركز قوة واحد ، ومصدر عطاء واحد ارتباطا قويا جداً ، بحيث لايمكن تصــور الانفصال . بل يعتقد ان الكون كله انما هو مجرد ارتباطاو وجودات حقيقتها الارتباط، وواضح ان الوجودات الارتباطية لاتقوم الا بالوجود المستقل بنفسه المفيض على غيره ما يحقق وجوده وبقاءه . ذلك المصدر الاعلى والمبدأ الاول هو الله تعالى الماسك بزمام الكون . وعند التفصيل أكثر والانتقال الــى صفاته تعالى فان المسلم يعتقدـ على ضوء تعاليم الاسلام ـ ان الله خالق الجميع بلا فرق بين جنس وجنس، وعنصر وعنصر ، وحي وغير حي، وهورب كلالاشياء فيالكون . (الحمد لله ربالعالمين) فهــو الا له للعالم . . وهو الا له الواحد المسيطر على كل فعاليات الوجــود . فهواله القدرة والبركة و البحــر والصحراء و كل مــا يتصــور . وانه لا يتصور الارتباط القرابتي له مطلقا مـن نسبة ولد أو زوجة او بنت له تعالى فنسبته الى الجميــع نسبة واحد ، وهي نسبة الخالقية ، وهو مسبب الاسباب كلها (الا لــه الخالق والامر) والمطلع على كل ذرة في الكون . (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) . . وهو الالهالحي ، بمعنى ان حقيقته هي الحياة (الله لااله

الاهو الحى القيوم) فحياته هى علمه وقدرته. وهو الاله الابدى والازلى بمعنى انه فوق الزمان وفوق المكان ، وأنه الحقيقة المطلقة التى لا تتقيد باي منهما فنستبه الى الجميع واحدة(هو الاول والاخر والظاهر والباطن . . .) .

وهو الاله القادر قدرة مطلقة ايضا بلاحدود . وهو الاله السميع البصير ، وهو الاله القيوم، والقهار والرؤوف الى ما هناك من صفات الكمال والجمال .

فخلاصة الامر :

ان الله في الصورة الاسلامية ، هو الحقيقة المطلقة التى لا تحد قدرتها وعلمها وحياتها حدود .

وهذا يستلزم في النهاية ان يكون تعالى منزها عن كل قوانين المادة . فكيف تحكمه وهو خالقها والمادة معا ، فليس هو بمركب ولا قابل للتغيير . وهو غير محتاج للمكان والزمان . ولا تأخذه سنة ولا نوم .

وملخص الصورة، ان الكون كله محكوم لتلك القدرة الحكيمة الخالقة المسيطرة التى لا يعزب عنها مثقال ذرة : في الارض او في السماء .

النبـوة :

ويعتقد المسلم انه من خلال ضرورات كبرى تطرح مسألة النبوة نفسها وهذه الضرورات هي من أمثال :

ضرورة وجود القانون الذى يقوم بمهمة الحفاظ على المسيرة البشرية ، وتنظيم امورها وضمها فى درب واحد نحو تحقيق السعادة بأقصى درجاتها .

وضرورة كون هذا القانون محيطاً بكل جوانب الاحتياج البشرى، وملائما ومقيما العدالة بينهما، وهذا لايتاتى للانسان ، ومن هنا نبعت الضرورة للاستمداد من الخالق الجبار المحيط العالم بكل ذلك.

وتبقى بعد ذلك ضرورة ان يبعث الله تعالى هذا القانون ويوصله الى البشرية، مربيا اياها على مراحل وهذا كله بمقتضى لطفه ورحمته تعالى، وهما من صفات الكمال .

واخيرا ضرورة ان تبعث الرسالة الى الأنسان على يد افراد من البشر مؤمنين طاهرين ، يؤدونها بكل اخلاص بعد ان يتسلحوا بما يثبت للانسانية اتصالهم الغيبى وسفارتهم المقدسة عن السماء.وقلنا ضرورة ذلك ونحن نعنى ما نقول ، اذ لايمكن ان يقود الانسانية الا أفرادمنها يعيشون معها ويقدمون لها النموذج الانسانى الأفضل، ومن هنا كان الاعتقاد بنبوة الانبياء الكرام عليهم افضل الصلاة والسلام .

كما ويعتقد المسلم ان الانبياء كلهم ، بعثوا الى غاية واحدة ، وهى تعبيد الانسان لله . بمعنى ان ذلك هو الواقع الذى يجب ان يسود البشرية ، لتبصـر حنيذاك طعم سعادتها الحقيقية ، سواء فى الجانب المادى او في الجانب المعنوى وانهم ساروا بالتدريج مع الانسان يربونه على مراحل ، شيئاً فشيئاً . وتختلف عندهم النظم بمقدار قابلية انسان عصرهم ، ولكـن الاسس واحدة ، وان اختلفت في درجات توضيحها وتركيزها وفقا للمستوى العقلي السائد فى كل مرحـلة .

كما ويعتقد المسلم ، ان الاسلام هو الدين النهائى اوالوصفة النهائية التى قدمتها السماء علاجا لكل ادواء الارض بكـل اجيالها وازمانها ، وان فيه مايتكفل ايصال ركب الانسان الى غايته المنشودة.

الامامة :

ويستمر المسلم الشيعى فى الخصوص بالاعتقاد بوجود اوصياء اثنى عشر اختيروا من قبل السماء وبمقتضى مؤهلات عقائدية وقيادية عالية منهم، وان اراده.. الله شاءت ان تحفظ آخرهم من نقمة الظالمين فتمنحه بقدرتها الخارقة صفة الغيبة عن الانظار . فهـو اذا المدخر لاحياء دين النبي ، وتقويم الشريعة، واستثمار جهود الانبياء فى دولة العدل الكبرى فى اليوم الموعود، محققا بذلك كل الامال التى طمحت

اليها كل الامم والملل .

وفي مجـال صفات هذه السلسلة الطاهرة من لدن آدم ، يعتقد المسلم انها ايضا جامعة لكل صفات الكمال فى الاطار البشرى أى بمعنى انها تجمع صفات الكمال التى يمكن ان يتصف بها انسان بشر محكوم لكل قوانين المادة ، ولا يفترق عن الباقين الا باتصاله بالسماء ـ طبعاً على اختلاف فى مستوى الصفات الموجودة .

فهـم الطاهرون المؤمنون الواعون المضحون ، بعيدو النظر القائمون على تبليغ رسالة الله للانسان، المحبون للانسانية العاملون على رفعتها ، ودفع ركبها نحو الغاية المنشودة من كل ذلك .

المعـاد :

ويعتقد المسلم بالمعاد كركن ثالث من اركان عقيدته . وملخص عقيدته فيه ، ان الانسانية ستنتهي من خلال مسيرتها الطويلة الى مرحلة اخرى من مراحل تكاملها بعد ان تطوى حياتها الحالية بكل ما فيها من سعاده.. وشقاء وخصائص اخرى وهناك الثواب والعقاب العظيمان.

هـذه هي اصول العقيدة الاسلامية التى سنعرف فيما يأتى من بحوث دورها الكبير في مجال تنمية الامل الايجابى الفعال .

الفصل الثالث

قوانين على اساس العقيدة :

مسألة القضاء والقدر

القوانين الاساسية :

الف ـ الحق سر الكون

ب ـ العدل يسرى فى انحاء الوجود

ج ـ الحب أطار العلاقات بين مختلف انحاء الوجود

ع ـ الرحمة بها انطلق هذا الوجود الكائن

مسألة القضاء والقدر

في مطلع الاشارة الى بعض القوانين العامة المتحكمة فى الكون ، نود ان نكون على ذكر من روح مسألة القضاء والقدر ، و خلاصة الامر انه قد شطت فيها الكثير من العقول ، وانقسمت لاجلها الاراء على طول خط الزمن الطويل ، فبين من فرضت عليه مسألة الايمان بعمومية قدرة الله تعالى وعدم تحديد مشيته فى مورد ما ان يقول بالجبرية . مما كان له ابعد الاثار فى عملية التقاعس عن مقارعة الباطل، وشد أزر الاقوياء للتحكم بدماءالامة، لحجة ان ذلك قضاء وقدر الهى ، وكذلك موت روح الابداع والتسابق نحو الخير . اذ ما الداعى لذلك والانسان محكوم لتلك القوة الجبارة المتحكمة . وبين من فرضت عليه مسألة الوجدان

القاضي بان الانسان مختار في اعماله وليس مجبوراً على عمل اى عمل ، ان يقول بالتفويض الكامل ، وتحديد المشية الالهية .

ومنهم فريق ثالث اقتصر على تخصيص آثار المشية الالهيةفى خصوص ما عدا افعال الانسان الاختيارية .

ولايهمنا هنا الاالاشارةلهذه الاقواللنخلص الىأنالواقعالذى لايقبل الرد هوان المشية الالهية لها عموميتها ، وانالحريةالانسانية ايضاً لها وجودها ، على ان ارادة الله تعالى ارادت لنظام العلية ان يقوم بعمله خيرقيام بنفسالارادة عينها التى خلق العالم بها.فجريان نظام العلية هو بنفسه تنفيذ للمشية الالهية .

فنفس هـذه الارادة الالهية هي التى اقتضت ان يصدر العمل الانسانيبمقتضىاختيارالانسان. هذا هوالواقع الذىيؤيدهالوجدان والدليل العقلى، وهوالذى التزمته مدرسة اهل البيتعليهم السلام حينما اعطت رأيها في هذه المسألة . كما أنه الذي فهمه المسلمون الاوائل ببساطتهم قبل ان تطغى عليهم الشبهات التى اثارتها الفلسفة المستوردة .

فلم يكن اعتقادهـم بالقضاء والقدر ليمنعهم عن ان يسألوا الله خير قضـاء وخير قدر ، وعن العمل والدعاء في آن واحد .

والذى يجب ان نلتفت اليه ايضاً في المسألة ، هو النظر اليها من الزاوية الالهية الاسلامية :

وقيدت النظر بالالهية ، لانفي انحصار العوامل والعلل في الكون بالعلل والعوامل المادية ، ولاثبت ـ كما عليه النظرة الالهية ـ تأثيرات اخرى لعوامل معنوية لها اثرها الكبير في تعيين المصير وذلك كما سيأتي في مابعد . وقيدتها بالاسلامية ، لاجل ان أنفي ذلك التشويه الذي اصاب العوامل المعنوية فجعلها عوامل محدودة ، ولصالح طبقة معينة كما رأيناه مثلا عند اليهودية .

ولكن من اين لنا ان نستقي ونتعرف على ماهية هذه العوامل المعنوية؟ لاطريق لنا الى ذلك الا مايخبرنا به الوحي الصادق لانه منطلق من منبع الحقيقة، ومطلع على أسرار الكون التي تخفى بطبيعتها الاولية علينا معشر بني الانسان .

والحقيقة ان القرآن الكريم يكشف للمسلم الكثير من هذه القوانين العامة ، والتي سنرى تأثيراتها في عملية صياغة الامل الدافع الايجابي .

واننا اذ نعرض لبعض هذه القواعد ، لا ندعي اننا استكملنا الصورة التي يريد القرآن اعطاءها عن الروابط في الكون، او أنا احطنا بتمام العناصر الدخيلة في نوعية القانون . وانما نتخذ صفة المشير الى هذا القانون ولو بشكل اجمالي لنحاول ان نعرض الى دوره في صياغة ايجابية الامل .

الف ـ الحق سر الكون

يقول الراغب في مفرداته ـ بتصرف ـ :

« اصل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة . والحق يقال على اوجه :

الاول : يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة . ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق (ثم ردوا الى الله مولاهم الحق) .

الثاني : للموجد بحسب مقتضى الحكمة . ولهذا يقال فعل الله تعالى كله حق (وانه للحق من ربك) .

الثالث : من الاعتقاد بالشيىء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه . كقولنا : اعتقادنا فلان في البعث والثواب ... حق (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) .

الرابع : للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر مايجب وفي الوقت الذي يجب . كقولنا : فعلك حق (حق القول مني لاملان جهنم)[1] .

ويمكننا ان نستنتج من مجموع هذه الاستعمالات ان الحق يعني باختصار : الامر الواقع أو الواقعي .

ونقصد بالواقع : الموجود المتعين في الواقع الموضوعي او العالم المستقل عن الصور الذهنية ، وبالواقعي الامر الذي يطابق مقتضيات الواقع الخارجي .

واروع انطباق للحق هو في الذات الالهية باعتبار انها بلغت من الوضوح لدى الفطرة الانسانية بحيث عاد الايمان بها ايماناً بديهياً فانوار الله تعالى قد غمرت الوجود فلم تعد تبصر الا ه تعالى في كل شيء ، لذا كان هو الحق الذي لا مراء فيه والواقع الذي لايشك فيه .

اما ما عداه تعالى من مخلوقاته وتشريعاته التي اسماها القرآن بالحق فهي ـ كما أرى ـ اكتسبت صفة الحق من وجهتين :

أ ـ من كونها واقعاً موضوعياً وهذا كما نشاهده في قوله تعالى (يوم يقوم الناس بالحق) فيلاحظ هنا التأكيد على الاشياء الخفية عن حس الانسان واعطائها صفة كونها حقاً لتركيز الايمان بها.

---

١) ص ١٢٥ .

ب ـ من كونها وجدت وفق مخطط الهى عام للكون ، كل جزء فيه ضرورى لسير الحركة الكونية ، ودخيل فى تحقق الغاية المرجوة من الخلق والتى ارادتها العناية الالهية منذ ارادت ان يكون فكان ، وفى هـذا القسم الثانى تدخل كل الأشياء سواء كانت مخلوقـات تكوينية او قوانين تشريعية . يقول تعالى :

« ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » البقرة ١٤٦ .

« وهو الذى خلق السماوات والارض بالحق » الانعام ٣٣ .

« والوزن يومئذ الحق » الأعراف ٨ .

« هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق » التوبة ٣٣ .

« قل الله يهدى للحق » يونس : ٣٥ .

« وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » العصر : ٣ .

ب ـ العدل يسرى فى انحاء الوجود :

رغم ان البحث الكلامى والجدل الذى دار بين الفرق الاسلامية كان ينتهى احيانا الى نتائج معينة ، يتغلب فيها انصار العدل حينا ، وتقوى الشبهات فيغلب انصار رفض العدل حينا آخر ، فانه مما لا شك فيه عند المسلم : ان العدل ـ باى معنى من معانيه ـ يبدأ بالعدل الالهى بمفهومه الاجمالى الذى حدثنا عنه القرآن الكريم ، وينتهى بتطبيقاته فى كل ذرة من ذرات الوجود .

فالعدل العام اذن فى اعتقاد المسلم قوة أخرى وعامل قوى من العوامل المعنوية ، التى تتدخل لصالح القضية العادلة فى الكون.. والظلم بنفسه يشكل عاملا من عوامل الزوال والفناء ، بغض النظر عن العوامل الاخرى .

هـذا بايجاز ملخص نظرة المسلم العامة ، ولا مجال للافاضة فيها أكثر ، فلنلاحظ الايات التالية :

« وأمرت لاعدل بينكم » الشورى : ١٥ .

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » النحل : ٩٠ .

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لامبدل لكلماته » الانعام:١١٥.

« وما ظلمناهم ، ولكن ظلموا انفسهم » هود : ١٠١ .

« قال : لاينال عهدي الظالمين » . البقره : ١٢٤ .

« فتلك بيوتهم خاوية ، بما ظلموا » النمل : ٥٢ .

« ان الله لايظلم مثقال ذرة » النساء : ٤٠ .

« ووجدوا ماعملوا حاضراً ، ولايظلم ربك احداً » الكهف:٤٩.

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ». الانبياء : ٤٧ .

« لاظلم اليوم » غافر : ١٧ .

« شهد الله انه لا اله الا هو ، والملائكة ، واولوا العلم ، قائماً بالقسط » آل عمران : ١٨ .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهـداء لله » النساء : ١٣٥ .

ج ـ الحب أطار العلاقات بين مختلف انحاء الوجود :

ومما يعتقدبه المسلم على ضوء القرآن الكريم: ان هناك اطاراً رحيماً عاما شاملا لكل انحاء الوجود ، وساريا في مختلف انواعها ، فالعلاقات بين الخالق والمخلوقين يؤطرها الحب ، والعلاقات بين المخلوقين المتحدي الهدف والمتأدبين بأدب السماء روحها الحب، وحتى العلاقة بين المؤمنين في الكون وبين اجزاء الكون التى لاتمتلك شعور الانسان، حتى هذه العلاقة، يحكمها الحب المتبادل.

ومبررات هذا الحب واضحة تماما على ضوء العقيدة الاسلامية وتعاليم القرآن ، فاذا بدأنا بالاطار الودى القائم بين الانسان وربه ادركنا اروع علاقة حب تتفاوت درجاتها ، من حب يقوم على المصلحة في طرف الانسان ولكنه على اى حال حب جارف ، الى

حب خالص واع يعبر عن قمة في هذا المعنى ، انه حب الاوصياء المخلصين ، الذين ما عبدوه تعالى طمعاً او خوفاً .

والاسلام يمتلك خاصية أنه يبدأ بالاشياء ببداية بسيطة ، كأقامة حب يقوم على ذلك الاساس المصلحي، ثم يرتفع به الى مستوى يجعله جزءاً من كيان الانسان ، ودافعا ذاتيا يتحكم فى سلوكه ، ويوجهه لصالح القضية الانسانية العامة .

اما الحب من طرف الباري جل اسمه ، فهو وان كان يخلق فى نفوس السذج من المؤمنين نفس الايحـاءات والتصورات البشرية من الحب بين الكائنـات ، ولكنه في الواقع : اسلوب تعبيري عن القرب من العطاء الالهى والاختصاص بالرحمة والرضوان بصورة اكبر من ذي قبل . واننى قد اجزم بان الايحاء الاول حاصل حتى عند بعض أعمق المؤمنين بالله تعالى بالنظرة الاولية : وان هذا ايضا بنفسه مطلـوب ومقصود . . اذ أن الحب حرارة ولوعة وشـوق ، والنصوص القرآنيـة الكريمة تركز على عملية خلق الانفعال وشد العواطف للباري عزوجل باساليب ، منها بل اعظمها الدوافع الناتجة من تصور الله تعالـى يلقي بظلال المحبة على الانسان العابـد . . ويمكن للقاريء الكريم التأكد من ذلك بمراجعة وجدانه الحاكم فى مثل هذه الموارد .

فالنصوص تثبت الحب لاصناف المؤمنين الواعين ، من امثال:

(المحسنين، التوابين، المتطهرين، المتقين، الصابرين، المتوكلين، المقسطين ، الـذين يقاتلون في سبيله صفاً كانهم بنيان مرصـوص)

والنصوص تثبت الحب بين افراد المؤمنين « يحبون من هاجر اليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا » الحشر : ٩ .

والنصوص تربط بعلاقة الحب بين الانسان والطبيعة ، بعد ان يشعر الانسان بـان الطبيعة مسخرة له ولصالحه هو ، وبعد الايحاء اليه بان يد العناية الالهية قد باركت في الارض أقواتها .

وقد ورد عن النبي العظيم صلى الله عليه وآله انه قال عندمـا رجع من غزوة تبوك وعندمـا أشرف على المدينة : « هذه طابة ، وهذا جبل احد يحبنا ونحبه »[1].

كما عبر عن ذلك بأن « حب الوطن من الايمان » .

وهكذا ننتهي الى حلقة رائعة من حلقات هذا الحب ، جعلهـا القرآن بمثابة اجر للرسالة الاسلامية ، والجهود التي بذلها الرسول الاعظم في خدمة هـذه الامة ، وهي حلقة ربط الامة كل الامة بأهل البيت الذين هم خير مؤهل لقيادتها نحو شواطيء الامان ، والذين هم سفن النجاة ، وباب حطة للعالمين « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » .

واخيراً ننتهي الى حلقة صغرى من حلقاتها ، وهي المودة القائمة

---

١) ـ راجع سفينة البحار : ٦٦٨ .

بين الزوجين « وجعل بينكم مودة ورحمة » الروم : ٢١ .

وتعتبر النصوص على جوانب النفي مكملة للنصوص الايجابية، فان تلك النصوص تؤكد تارة على انقطاع صلة الحب بين الله والعباد الـذين خرجوا عن امر ربهم ، من امثال (المعتدين ، الكافريـن ، الظالمين ، من كان مختالا فخوراً ، من كان خواناً اثيماً ، المفسدين، المسرفين ، الخائنين، المتكبرين، الفرحين) .

واخرى على انقطاعها بين افراد الانسان : الذين يهتدون بهدى الله والذين استزلهم الشيطان الى الكفر « لاتجـد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله » المجادلة : ٢٢ .

النتيجة

من مجموع هذا نستخلص هذه النتيجة :

(ان المسلم يعتقد بأنه يعيش في عالم من الحب المتبادل) .

ولهذه العقيدة تأثيرها الواسع الابعاد على خلق الامل فى نفس الانسان : الامل الايجابى الدافع نحو سعادته ورقيه . كما سيأتى ان شاء الله .

على أننا نعترف هنا بأنا لم نف الموضوع حقه فى نفسه، لكننا يجب أن نتذكر أننا لانبحث هنا عنه الا بمقدار مايوضح لنا الصورة التى نريد أن نرسمها ــ فيمابعد ــ عن روافد الامل فى ذهنية المسلم الفرد ، والمسلم الامة . . .

د ـ الرحمة : بها انطلق هذاالوجود الكائن :

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

هذاالمقطع المبارك يعتبراروع مقطع جامع يعبرعن سرالعقيدة الاسلامية ، فقد وردت بعض الروايات التى تركزعلى ان القرآن جمع فى سورة الفاتحة ، وان سورة الفاتحة جمعت في البسملة . . وعند تحليلنا لهذا المضمون لايسعنا الا أن نرى انها تشير الى : أن سورة الفاتحة انما اعتبرت روح القرآن باعتبار انها تحوى اصول العقيدة الاسلامية بصورة اجمالية ، والقرآن قدأطر كل شيء تحدث عنه باطار العقيدة .

اما اذا انتقلنا الى المرحلة الثانية ، فسنجد ان البسملة بنفسها شكلت روح العقيدة واساسها ، اذ ركزت على انطلاق كل شيءفى

الوجود من اسم الله تعالى في مقطعها الاول ، وعن الاطار الذى تم بموجبه ذلك الانطلاق بمقطعها الاخير .

فالانطلاق « بسم الله » وموجبه : (الرحمة التى لاحد لها) .

وهذه حقيقة نجدها متمشية في مختلف المواضع من القرآن الكريم ، معبرة عن مظهر من مظاهر الكمال في الذات الالهية ، مما خلق اعتقاداً راسخاً عند المسلم : انه منطلق من مصدر الرحمة ، و منته الى عالم الرحمة ، وسائر من كنف هذه الرحمة ، التى تتجاوز عن الكثير من موارد الانحراف التى تطرأ احيانا على سلوكه . . و سنجد عند استعراضنا لاثار الدعاء : الكثير من الاساليب التربوية العقائدية ، التى تركز على هذا الجانب ، فى الادعية المنقولة عن المعصومين عليهم السلام .

وفى القرآن الكريم نجد الكثير من الايات الكريمة التى تقرن صفة العزة الالهية بالرحمة ، وتنتهى بعبارة : « انه هو العزيز الرحيم » الدخان : ٤٢ .

او بعبارة: أنه « خير الراحمين » أو : « كتب على نفسه الرحمة » او: « وربك الغني ذو الرحمة » الانعام : ١٣٣ ، وهكذا الايات الشريفة :

« فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » الانعام : ١٥٧ .

« ان رحمة الله قريب من المحسنين » الاعراف : ٥٦ .

« فانظر الى آثار رحمة الله : كيف يحيي الارض بعد موتها » الروم : ٥٠ .

« قل: ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله »
الزمر : ٥٣ .

« الرحمن على العرش استوى » طه : ٥ .

وحتى فى أشد المواقف هيبة ورهبة تأتى صفة (الرحمن) :
(وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً) طه : ١٠٨ .

وهكذا يعتقد المسلم بعنصرين آخرين بالاضافة الى عنصري الحق والعدل ـ اللذين يعنيان التوازن اول مايعنيان ـ وهما: الحب والرحمة ، اللذان يعنيان: الفضل من الخير والاعطاء فوق الاستحقاق.

الفصل الرابع

القوانين والمفاهيم المتفرعة .

لا مكان للباطل .

النصر للمؤمنين .

العاقبة للمتقين .

العمل الصالح والسيئات .

التقدم المضاعف من قبل الله الى العبد .

الربط بين عالمي الغيب والشهادة .

نفي اليأس والقلق بشدة .

دور التوكل .

دور الدعاء .

دور التوبة .

دور الشفاعة .

عرفنا في الفصل السابق القوانين الاساسية المتحكمة في الكون ، وهي قوانين : (الحق والعدل والحب والرحمة) .

وقد كان الايمان بهذه القوانين منبعاً للايمان بقوانين فرعية قد ترتكز على واحد منها او على اساس منها جميعاً ، فلنستعرض أهمها في ما يلي : —

لا مكان للباطل :

امـا فى الامور التكوينية ، فلانها لا تمتلك شيئاً من عناصـر الاختيار، فلا معنى لوجـود الخلق الباطل فيها بعد الايمان بحكمته المطلقة تعالى .

واما فى الامور التى ترجع الى سوء فعل الانسان وتصوراته وايحاءات الشيطان ومغوياته ، فالباطل وان كان متصوراً أن يسود فى بعض الازمان ، ألاانه سيكون نشازا على الطبيعة الكونية،وعلى الطبيعة الانسانية ، وهذا النشاز سيظل يؤتى ثماره الفضيعة في حياة الانسان مالم يعمل على اذابته والرجوع الى الامر الحق الذى يطابق الفطرة الانسانية ويتلاءم مع الطبيعة العامة وقوانينها. وهذا الامر لن يعلم بالطبع الا من قبل الوحى الاتى من خالق هذا الكون،والمطلع على نواميسه ، ومن هنا قال تعالى : « قل الله يهدى للحق » .

« أفمن يهدى الى الحق أحـق أن يتبع ، أمن لا يهدي الا أن يهدى ؟ ! . » .

فالكون ـ اذن ـ بتنظيماته : ضد الباطل الذى حدده لنا المطلع على حقائق الامور « وقل جاء الحق وزهـق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » الاسراء : ١٨ والملاحظ فى تعبير « زهوقاً » : انه يعنى ان الاصل فى الباطل الفناء والزوال ، وذلك مما يقوي الامل في القضاء عليه .

ومن هنا ايضاً تتوضح فكرتنا عن قوانين اخرى فى طول هذه الحقيقة .

النصر للمؤمنين :

وهذه قاعدة نرى في كثير من المواطن التأكيد عليها من قبل القرآن والنصوص الشريفة . وهي تقرر ان الله تعالى يتكفل ايصال المؤمنين الـى النصر والفوز وتحقيق الامال ، ان كانوا هم الذين بدأو المسير ، واخلصوا النيات ، واستهدفوا ما يعبر عنه القرآن بنصر الله ، وهـو تعبير جميل عن نصرة الحق ، وهى عملية رفع التنافر بين القانون والسلوك الاعتبارى وبين الواقع الطبيعى العام، وارجاع الجزء النافر الى حيز المسيرة المتوائمة المتوازنة .

وهكذا تطالعنا الايات القرآنية الشريفة التالية :

« ياايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » محمد : ٧ .

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » غافر: ٥١ .

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » آل عمران : ١٦٠ .

« ولينصرن الله من ينصره . . ان الله لقوى عزيز » الحج: ٤٠.

« وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران: ١٢٦.

أن الاسلام يعتبر مسيرة الانسان منذ انطلاقها حتى نهايتها مسيرة واحدة ، ويقيس على اساس من هذه الوحدة كل العوامل الدخيلة في تحقيق الغرض العام ، وهو التكامل . بل نستطيع ان نتجاوز هذا الاطار الانساني الى الاطار الكوني العام فندعي : ان الكل يمتلك ذلك الهدف العام ويعمل على تحقيقه . ولذا فكل انسان ساهم فى الدفع نحو ذلك الهدف العظيم منتصر على المدى الطويل وان اعتبر منهزماً فى فترته الموقتة ، ويحق له بذلك ان يعتبر نفسه اينما كان منتصراً منذ الان ! ان سلسلة المؤمنين عبر التاريخ كلها تشترك فى اي عمل رسالي يقوم به فرد من هذه السلسلة فى اي زمان كان ! ومن هنا نستطيع ان نفهم قولة الامام امير المؤمنين ، وذلك لما أظفره الله باصحاب الجمل فقال له بعض اصحابه : وددت ان اخي فلاناً كان شاهدنا ، ليرى ما نصرك الله به على اعدائك؟ فقال له عليه السلام : « أهوى اخيك معنا ؟ فقال : نعم . قال فقد شهدنا ، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا اقوام في اصلاب الرجال وارحام النساء سيرعف بهم الزمان ، ويقوى بهم الايمان » (نهج البلاغة : ٥٥) .

العاقبة للمتقين :

بعد ملاحظة قانوني الحق والعدل ، يستطيع الانسان ان يدرك بوضوح هذا القانون القرآني العظيم الذى يجسد آمال البشرية الخيرة : فيوصول النخبة الممتازة ـ اخلاقياً ، وعقائدياً ـ الىمنصة القيادة ، وامتلاكها العاقبة الحسنة في النهاية الطيبة .

فالقرآن الكريم يصرح :

«أن الارض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين» الاعراف : ١٢٨ .

« والعاقبة للتقوى » طه : ١٣٢ .

« أفلم يسيروا فى الارض فينظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » محمد : ١٠ .

وهذا ما بدت تباشيره تلوح فى الافق، فقد رأينا العالم اليوم

يحاول ان يعود ـ ولو بحياء ـ الى تعاليم الاسلام العظيم، بعدان جرب كل النظم ، وسلك مختلف المسالك البشرية ، وذاق صنوف العذاب والالم ، وضاق من التركاض في مسارب التيه ! .

ان تباشير العودة تلوح فى أقوال القادة والمفكرين الداعين لدارسة العقيدة الاسلامية والتشريع الاسلامي بعمق ، والاستفادة من كنوزهما الثمينة ! . والامر يحتاج بعد ذلك الى أن نعي الواقع العالمي القائم اليوم ، ونعي اسلامنا بعمق ، ومواقفه من المشاكل العالمية المعقدة ، ونقوم بنبذ كل لهو داخلي، لاجل الاعداد لحملة توعية للعالم ، والاستعداد لامتلاك ازمته بصورة ليست بالصعبة ، بعد ان افلس النظام الغربي ، والذي يعترف بانه لا يجد بديلا له الا في الاسلام! . وبعد كل هذا فالامة يحق لها أن تنتظر القائد الذي: يظهر فيملأ الارض قسطاً وعدلا .

العمل الصالح ، والسيئات :

ان القيام بالعمل الصالح الايجابي نفسه يشكل احد ابواب سعة الامـل عند المسلم بعطاء الله تعالى . فبالاضافة للابـواب المفتحة السابقة اعتبر الاسلام القيام بالحسنة طريقا من طرق الرجوع الـى الله ، ليؤكد عفو الله وغفرانه ، ويعمل على محو السيئات من سجل اعماله الماضية ، فينجيه من تبعاتها وعواقبها ، وأقـل ذلك ما كانت سوف تؤدى اليه من موقف مخز . يوم تجتمع الخلائق فى ظـل حساب الله و « يوم تعرضون لاتخفى منكم خافية » .

فاذا تم محو السيئات والسوابق السوداء ، انطلق الانسان المسلم بصحيفة ناصعـة البياض ، غير قلق ولا متوان ، وبكل أمل ، ليحيا حيـاة العمل الصالح فى سبيله وسبيل مجتمعه والانسانية جمعـاء . والايات التى تتعرض لهذا الجانب على نوعين :

النوع الاول :

ما يظهر منه أن الاتيان بالحسنة والعمل الصالح لا يقتصر تأثيره على محو السيئات الماضية، بل يقوم ـ بأذن الله ـ بتبديل السيئات الماضية الى حسنات! وهذا مما يشعر الانسان المسلم برحمة الله الواسعة التى قابلت كل هذه الاساءة ـ ومنها الشرك بالله ، وهو اعظم السيئات ـ بهذا الفضل العميم ، فحولتها الى حسنات ينال عليها الاجر ، كما لو كان فعلها من قبل واقعاً! يقول القرآن الكريم فى معرض صفات المؤمنين :

« والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق اثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهانا، الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيما ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متابا » الفرقان: ٦٨ـ٧١.

النوع الثانى :

ما يبدو منه ان الاتيان بالحسنة يعمل على محو السيئة فقط، اما التبديل فلا تتعرض له .

ومنها: « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل . ان الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين » هود : ١١٤ .

ومنها في صفات المؤمنين : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، واقاموا الصلاة ، وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرؤون بالحسنة السيئة ، اولئك لهم عقبى الدار » الرعد : ٢٢ .

فقد نقل صاحب (مجمع البيان) عن ابن عباس انه قال : انها تعني . . « يدفعون بالعمل الصالح السيىء من العمل » .

كما روى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله لمعاذ : « اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها » .

كما أن هناك قولا بانهم يدفعون اساءة من اساء اليهم بالاحسان.

وقولا بانهم يدفعون بالتوبة معرة الذنب[1].

فاذا عرفنا وجود هذين النوعين . من الايات فكيف التوفيق بينها ؟ ذكروا للاجابة وجوها :

الاول :

ان يقال : بأن الايات كلها تشير الى حقيقة واحدة ، هي ان العمل الصالح والحسنات تربي النفس الانسانية على الفضيلة والاستقامة، مما لايدع مجالا للسيئات في حياة الانسان ويتوضح ذلك خصوصاً اذا لاحظنا ان آية : « ان الحسنات يذهبن السيئات » واردة في سياق امر النبي صلى الله عليه وآله بالصلاة .

---

١) ٢٨٩ج/٦ من المجمع .

كما ان ورود عبارة « يدرؤون » تشير الى أنهم يدفعون السيئات قبل ورودها ، فالدرء والتدرى : هو الدفع ، كما عن (شرح غريب القرآن ص١٦٩) وكما تعنى فى الاستعمالات التالية : « ويدرأ عنها العذاب» « ادرؤوا الحدود بالشبهات » «ادرؤوا عن انفسكم الموت» وغير ذلك .

وممن الممكن : المناقشة فى هذا التوجيه بان يقال : أن الظاهر هو كون الايات تشير الى السيئات السابقة : وان كنا لا نمانع فى ان تكون شاملة لما سيتكون من حالة نفسية ، ففى آية « اولئك يبدل الله . . . » جاء تعبير التبديل ونسب هذا التعبير الى الله ، مما يبدو منه انه من مختصاته تعالى ،وهذا ينطبق اول ما ينطبق على الذنوب المسجلة التى يكون رفعها بيــده تعالى ، خصوصــاً والسياق سياق توبة وانابة عن الشرك وباقى المعاصى .

اما الدرء بمعنى الدفع ، فالظاهر انه يشمل دفع المعاصى الثابتة ـ اذا تخلصنا من مصطلح الدفع الفلسفى المتأخر ـ . ويعتبر الحديث الشريف المذكور ، وفهم ابن عباس لذلك : مؤيداً لهذا الظهور .

اما تعبير « ان الحسنات يذهبن السيئات » فلا مانع منه هنا ، لانه تعبير عن لطف الهى وقاعدة عامة ، خصوصاً اذا لاحظنا آخر الاية : « ذلك ذكرى للذاكرين» ولاحظنا أمثال هذا المورد ، من مثل:

« ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » أو : « لقـد تاب الله على النبى . . . » وغيرذلك . واخيراً فان تعبير « يذهبن » يؤكد لنا انها تعمل على اذهاب السيئات التى كانت حالة بالشخص .

الثانى :

أن يقال : ان الايات كلها تشير الى الذنوب السابقة ، ولاتنافى بينها . فان بعضها يشير الى مرتبة معينة ، والاخر يشير الى المـرتبة الاعلى منها .

الا انه يمكن النقاش فى هذا التوجيه : باعتبار اننا اذا اعتبرنا وحدة المـؤثر فلماذا عدلت الايات الىالأشارة الى بعض الاثر ، وهى فى مقام الترغيب والحث الذى يستوجب اعطاء الأثربكماله؟

الثالث :

هو ان يقال : بأنآية التبديلتركز على انه اثر العمل الصالح المدعوم بالتوبة والايمان ، فى حين ان الايتين الاخيرتين تشيران الى اثر العمل الصالح بنفسه ، وانه يعمل على درء السيئةواذهابها.

الرابع :

أن يقال : ان ذهاب السيئات يعنى حصول الاهلية لرحمـة الله

وفضله الواسع، فتشمله وبالتالى يمكن القول بان : الحسنات يملأن محل السيئات .

وعلى أية حال ، فان ذلك باب من الفضل يبعث الامل بالمستقبل، ويحيى الانسان المذنب من جديد حياة الصالحين العاملين فى سبيل الحـق .

التقدم المضاعف من قبل الله الى العبد .

وهذه حقيقة أخرى تبعث الانسان على العمل ، والامل بالخير العميم الذى سينتجه هذا العمل . وذلك لانه يشعر بأنه كلما تقدم الى الله تعالى خطوة تقدم الله اليه ميلا ! وما ان يبذل جهده فى سبيل الحقيقة اى حقيقة كانت فان الله تعالى سيفتح الطرق امامه... فلا مانع اذن من اقتحام العقبات والمصاعب ، ولا داعى لليأس من الحصول على المراتب العالية ! لان الانسان ليس متروكاً لوحده فى الطريق، بل ان قوة الله تعالى ووعده لايسندانه فى سيره فحسب بل يوفران له النتائج المضاعفة ، ان فى هذه الدنيا أو فى الاخرة، وكلاهما مجال يمكن أن يعود على الانسان بالعطاء ، وان اختلفت درجة العطاء من عالم الى آخر .

يقول تعالى: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » العنكبوت: ٦٩

« من ذا الذى يقرض الله قرضـاً حسناً فيضاعفه له وله اجر كريم »
ويقول تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها » .

وغير ذلك مما يفتح للانسان المسلم يوماً بعد يوم آفاقاً للامل جـديدة .

دور الربط المستحكم بين عالم الغيب والشهادة

وتعتبر هذه الظاهرة من ابرز الظواهر التى امتازت بهاالتعاليم الاسلامية . . فبعد ان يعترف الاسلام ـ بمقتضى واقعيته ـ بظاهرة تأثر الانسان بمحسوساته اكثر منهبمعقولاته ، يعمل بشتىالاساليب على خلق التوازن بين التأثربكلاالجانبين ، وعلى التقريب بينهما، بمعنى ان يقرب الامور المعنوية الى التجسيد الحسي .

وليس هنا مجال استعراض اساليب الاسلام الفكرية والعملية فى ذلك . ولكن نقول : ان تلك الاساليب من شأنها ان تجعل المسلم يتأثر بالمعقول ويتفاعل معه بمايقرب من تأثره بالمحسوس فهو اذن يبصر عالم الغيب ويلاحظ رحمة الله وتقديره ملاحظةتعبر الظواهر . وهو يشعر بالقوانين المعنوية كقوانين الدعاء والشفاعة تماماً كما يشعر بالقوانين المادية .

فالاسلام لم يكتف باثبات نتائج العمل الصالح في عالم الاخرة، بل تجاوز ذلك واثبت ان العمل الصالح ـ وهذا هو مقتضى العقل ـ سيعود بالخير على الانسان نفسه في هذه الحياة الدنيا .

يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام : «فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم انهاراً » ويقول تعالى : « ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء » .

في حين تربط الايات الاخرى بين الانحراف الفكري والضياع العملي، فتقول الاية الكريمة : « ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا » .وهذا الربط الوثيق يعطي الامل طاقة دافعة بتقريبه الى الحس الانساني ، اذ يبدو وكأنه يراه عياناً فيسعى له اشد السعي ويتشوق له اشد الشوق .

وآية ذلك ماقاله امير المؤمنين عليه السلام في وصف المسلمين الصادقين المتقين : «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . . . » .

اذن فما نريد التأكيد عليه هو أن هذا الهدف التربوي للمسلم له تأثيره البارز ايضاً في جعل الامل اكثر فعالية وقوة .

نفي اليأس والقلق بشدة :

وهذان الامران هما الحالتان النفسيتان اللتان تخلفان حالة الامل، وتستتبعان عكس ما نتوقعه من الامل من آثار . فبين الكفتين ارتفاع وهبوط . ومن الواضح انه اذا اردنا تقوية كفة الأمل فان ذلك يجب ان يكون بتقويته ومنحه ابعاده الواقعية ،وبالقضاء على كل اسباب اليأس والقلق . ونحن اذا رجعنا الى ماذكرناه سابقاً عرفنا ان جذور هاتين الحالتين المضادتين قد عولجت علاجاً حكيماً . فلماذا اذن تعمدنا ذكرهما في هذا الموضع ؟ وما هو الجانب الاضافي الذي يمكنه أن يبرر ذلك ؟

اعتقد أن الجانب الاضافي يكمن في انه بالاضافة الى علاج الاسلام لهما علاجاً جذرياً،وفتح أبواب الامل الواقعي على مصراعيها

فانه تمر حالات خاصة بالانسان ـ على اختلاف فى المستويات ـ يتأثر فيها بموقف حسي معين ، وحالة حرجة لامفر منها . . .فيغفل عن كثير من تلك الجوانب، ولربما يصل به الامر الى اليأس ! وهنا يأتي دور تحريم اليأس تحريماً باتاً ، لينفى عن الانسان المسلم فعلا هذه الحالة ، فتقول الاية الكريمة « ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (يوسف : ٨٧) فالتعبد اذن يقتضى قبل كل شيء عدم اليأس ، وبعد ذلك تعود النفس الى حالتها الاولى وتقبل تأثيرات عوامل الامل مرة ثانية .

ولامعنى للقول : بان هذا الفرض لا يجتمع مع الايمان الكامل، اذ مقتضى ذلك : الكون على وعى دائم .

وانه لاعمومية لذلك ، بعد أن دلنا الوجدان على ان الانسان ضعيف على أي حال ، وان علا كثيراً فى مرتبته المعنوية .

وقد يكون متعلق اليأس هو الموضوع الخارجى، كأن يستيئس انسان من هداية انسان آخر ، كما حدث للرسل حين استيأسوا وظنوا انهم قد كذبوا فجاءهم نصر الله ، يوسف : ١١٠ .

فهذا وان لم يكن يأساً من روح الله ولكنه يأس على اى حال، ويجب ان ينتفى من حياة الانسان وخصوصاً حملة الرسالة .

اما القلق فهو في الحقيقة ناشيء من عوامل مختلفة ، كعدم المأمن الروحي ، والمرور بالاحداث الكبرى ، ونمو روح التشاؤم، وغير

ذلك من العوامل، كالعوامل الاقتصادية . وقد عالج الاسلام كل تلك الاسباب ، فافقد الانسان مبررات اليأس أولا ، وركز على جـانب الاطمينان القلبي بذكر الله ، فعل كل ذلك دفعاً للانسان نحو العمل بكل ثقة في سبيل تحقيق آماله .

مفهوم التوكل :

فأن القرآن الكريم يركز في خلد المسلم أن يكون في كل اموره متوكلا على الله تعالى . . والتوكل الصحيح لايعنى تلك الصور الجامدة التي تنطبع في ذهن البعض ممن أصابهم داء الكسل والانطواء من المسلمين ، أو ممن يتصورون ذلك . كلا . . وانما يعني الاستمداد المتصل من الله تعالى والالتجاء اليه في كل مشكلة تعترض طريق الانسان ، وطلب العون منه تعالى ومن تعاليمه الخالدة. أنها صفة موضوعية وسيكولوجية في آن واحد ، فهي موضوعية من حيث احتوائها على عنصر الالتجاء الى ايحاءات السماء ، والتمسك بعصم الحق .

وهي سيكولوجية من حيث شدها لروحية الفرد المسلم

ونيته بالسماء و تقويتهـا واشعارها بأنها ترتبط باقـوى القوى في العالـم .

ان هذه الصورةعن التوكل تبعده عن التواكل ، حتى تجعلهما على طرفي نقيض ويمكننا ان نركز النظر في الآيات الكريمة التي التي جعلت التوكل أحد العوامل الرئيسية المؤثرة في تغيير الحوادث، لنشاهد كيف انها قرنت التوكل بالايمان تارة ، وبالعزيمة اخرى ، وبالعبادة عموماً تارة ثالثة، وبالصبر في مكان آخر ، واخيراً ربطت بين حب الله والتوكل كجزء من عملية الربط العاطفي بين الله والعباد والمتقين، كما وضحناه عند حديثنا عن اساس الحب في العلاقات بين الكون وخالقه .

فلنراجع اذن هذه الآيات لنستجلي ما قلناه :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » الطلاق : ٣ .

« وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » الشورى : ٣٦

فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .
آل عمران : ١٥٩ .

« واليه يرجع الامر كله ، فاعبده ،وتوكل عليه » هود : ١٢٣

« و دع اذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا »
الاحزاب : ٣ .

فالتـوكل على الله اذن عامل رئيسي فى ايصـال الانسان الى مطلـوبه ، والتوكل كما سبق صفـة من صفات الانسـان الواعـى لمركزه في الكون ونوعية علاقاته بالسماء ، والذى يصفه القرآن بـ« الانسان المتقي » .

الدعــاء

وواضح أن في مسألة الدعاء بحوثا كثيرة لن نتعرض منها الا الى مايرتبط بعنصر الامل، واشباعه وتركيزه وتأجيجه . ثم نتعرض في بحث ضوابط الامل الى نظرة الشريعة الى الدعاء المنتج، والى اثر الدعاء نفسه في خلق ضوابط محدودة للامل لئلا يخرج عن حده.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم :

« واذا سألك عبادى عنى فاني قريب ، اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » البقرة : ١٨٦ .

وقال تعالى : « وقال ربكم ادعوني استجب لكم » غافر : ٦٠.

وقال تعالى: «قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم» الفرقان: ٧٧.

والله تعالى كمايقول القرآن : «سميع الدعاء» آل عمران: ٣٨ .

والايات كثيرة في هذا الصدد .

والمتبادر من الدعاء عموماً وحسب مفهومه الديني هو الوقوف امام الله تعالى بخشوع وخضوع ، ونفي كل الحجب بينه وبين الله ثم عرض حاله وما مر به من مصاعب ، وطلب المدد منه تعالى فى اصلاح ذلك ، والاستزادة من الخير الدنيوى والاخروى .

والدعاء يخدم الامل كجزء من الغرض الديني بأمرين : طبيعته ومستلزماتها ، ومضامينه . فان الدفع نحو هذا المعنى ، والتأكيد

على ان يقف الانسان امام خالق الكون العظيم بخشوع واجلال ، وايكال الامر اليه ، واستمداد العون منه يعنى :

أ ـ التجسيد لكل المعنويات

ان الايمان بالله تعالــى وقدرته اللانهائية وعلمه اللا محــدود ورحمته الواسعة ، يزداد رسوخا في النفس الانسانيــة من خلال الدعــاء .

وذلك لان موقف الداعي يحول الايمان من فكرة الى تجسيد عملي ، وخطاب حي موجه ، وانتظار حي للفـرج . . اذ واضح ان كثرة مثل تلك المواقف تحول التوحيد من عقيدة فكرية الى شيء واضح ملموس ، فها انا حساً اقف امام رب السماوات والارض الذى يعلــم بموقفي ، والرحيم بي ، والقادر على أن يحقق مطلبي الذي يعجز عن تحقيقه غيره « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونـه لايستجيبون لهم بشيء ، الا كباسط كفيه الى الماء ليبلـغ فاه وما هو ببالغه ! وما دعاء الكافرين الا في ضلال » الرعد : ١٤ .

ويضفـى القـرآن على هذا الموقف صفة الرحمة عندما يعبـر « واذا سألك عبادى عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان» البقرة : ١٨٦ .

وواضح مـا تنشره هذه الصفة من حرارة في حنايـا النفس ، واطمئنان بالنتيجة المطلوبة ، وبالتالي السعي الحثيث لتهيئة المعدات

اللازمة لتحققها . وعليه : فان فتح باب الدعاء والحث على القيام به ، يركز عطاء العقيدة بكل تفاصيلها التي مرت بنا ، تماما كما يركز كل القوانين القرآنية الاخرى الآنفة .

ب ـ تلبية الحاجات الطبيعية الغريزية للانسان

وواضح ان أي اشباع مهذب لاية حاجة طبيعية ، لها اثرها الفعال في خلق التوازن في شخصية الانسان ، وصياغته انسانا هدفيا واعيا لواجبه في الحياة ، نافيا عن حياته كل تأرجح بين اشباع هذه الغريزة او تلك .

ولاجل أن نوضح: كيف ان الدعاء بطبيعته يلبي بعض الحاجات النفسية للانسان ـ نلتفت الى حالتين نفسيتين وجدانيتين هما :

اولا ـ جوع الانسان للحنان

كما يعبر عنه احد كبار الكتاب اذ يقول : « فهناك حالات يشعر الانسان فيها ـ أمام قسوة الحياة ، وضغط المشاكل ، وتراكم الازمات الداخلية والخارجية ـ بحاجة الى التعبير عن الالام التي تمزق ذاته ، والمشاعر التي تجيش في نفسه، دون أن تجرح كبرياءه وهنا يأتي دور الدعاء الذي يسمح للانسان ان يتنفس بكرامة ومحبة، وللروح ان تنطلق بعزة وحنان، فينفتح قلب الانسان على ربه، وينطلق

بروحه الى الله حيث السلام والطمأنينة ، والحياة الوادعة الرضية المطمئنة ، التي تجعل الانسان يغفو على هدهدات الامل، عبر لفتات الرحمة ونبضات الرضوان »[1].

فالانسان مهما ابتعد عن الله تعالى، ومهما غطت بصيرته الغشاوات وظن في نفسه انه اقوى القوى ، فانه تمر به لحظات يحس معها تماما بضعفه ، وخصوصاً اذا انقطعت حيلته من كل الوسائل المادية .

ان الفطرة حينذاك ستتفتح، وتنفض عنها غبار النسيان، وتتوجه الى الله تعالى القادر المطلق . . . ومن هنا كان هذا الموقف من الادلة الفطرية التي تقود الى الايمان به تعالى . . . كما انه من هنا نستطيع ان نقول : ان الدعاء امر فطرى للانسان ككل ، فضلا عن كونه امراً طبيعياً للانسان المؤمن بالله ، والايات القرآنية التالية تكشف لنا عن ذلك المعنى حينما تقول : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه اوقاعدا اوقائماً » يونس: ١٢ « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخيفة : لئن انجانا من هذا لنكونن من الشاكرين » الانعام : ٦٣.

« فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخصلين له الدين، فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون » العنكبوت: ٦٥ « واذا مس الناس ضر دعوا

---

١) مجلة الهادى العدد الاول ـ السنة الثانية ـ مقال بعنوان : الدعاء فى شهر رمضان للحجة السيد محمد حسين فضل الله .

ربهم منيبين اليه ثم اذا اذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون» الروم : ٣٣ « واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخصلين له الدين» لقمان : ٣٢ .

والملاحظ ان التعبيرات عامة خصوصاً عبارة «واذا مس الناس» ولا تختص هذه الحالة بالمؤمنين وانما تورد احتجاجا على المشركين ايضـاً .

ومـا اروع تعبير الآية القرآنية عند ما تصف حالات الانبيـاء الذين كانوا يستمدون العون من الله في كل آن ولحظة وخصوصاً في لحظات الشدة .

فعلى لسان زكريا يقول تعالى : « رب اني وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبـاً ، ولم اكن بدعائك رب شقياً » وعن موسى عليه السلام : « ثم تولى الى الظل فقال : رب اني لما انزلت الي من خير فقير» وعن نوح عليه السلام قوله : « فدعا ربه اني مغلوب، فانتصر » .

وثانياً : مقتضيات الضمير :

فمهما قيل او يقـال حول الضمير ، أهو غريزة فطرية ؟ ام هو استعداد نفسي لتقبل الصفـات الانسانية ؟ ام هو نتيجة تربية بيئوية معينه ؟ فهو على اى حال موجود في النفس الانسانية ، او هو موجود فى أغلب النفوس . . . وهـذا الضمير يشكل المحكمة الداخليـة

المحاسبة الدافعة نحو الاعتراف بالذنوب والجرائم ، وتلمس سبل تداركها .

هذه حقيقة ، والحقيقة الاخرى هي ان الانسان بطبيعته يحتاج لامحالة الى من يشاركه اسراره ، ويشكو اليه ما الم به من صعاب حتى يزيح بعض الهم عن صدره .

وبفعل هذين الدافعين نجد الانسان محتاجاً لعملية الدعاء والمناجاة مع الله العظيم دون غيره ، ومحتاجا لان يشكو همه وحزنه وغمه فيخفف عن كاهله «انما اشكو بثي وحزني الى الله » يوسف:٧٦.

فخير ملجأ لهذا الانسان وذاك : هو الله تعالى لاغير ، وذلك لانه تعالى لن يكشف ذلك السر وتلك الجريمة على الملأ «كم من قبيح سترته »كما ان ذلك سيكون طريقا للعفو عن الجريمة اورفع المحنة .. هذا بالاضافة الى ان الانسان امام الله يشعر بحرية بتحليل دوافعه ، بعيداً عن العوامل الخارجية . واخيراً يشعر الانسان مع الله بانه ينطلق من ذاته فينقدها بلا ضغط خارجي .

ج ـ منح السند النفسي لتحقيق الامل :

وهذا الامر جدير بالذكر في مجال معطيات طبيعة الدعاء ، اذ أن الداعي بتصوره لعظمة الله تعالى وقدرته واحاطته ، وانه ضمن له الاجابة « وضمنت لي الاجابة » بقوله تعالى « أدعوني استجب

لكم » ـ بتصوره ذلك ـ يكون اكثر اطمئنانا وثقة بأمله . ولذلك فهو بالتالي يسعى بكل جهده لاجل الوصول اليه، شاعراً باسناد الله له، وذلك أمر لاشك في اثره . . . وكم اكد علماء النفس على مسألة تربية الدافع النفسي والانشداد العاطفي بالهدف لكل هادف، سواء كان في مصنع ، او ارض يفلحها ، او مجتمع يصلحه .

وهكذا رأينا أن الدعاء بذاته وطبيعته باب يجد الانسان فيه راحته النفسية ، وتنفتح امامه ـ بعد ولوجه ـ آفاق من المستقبل المشرق ، مودعا عالمه المظلم السابق ، اذ يعيش في رحابه تعالى، تتركز في اعماقه معالم التوحيد ... يعترف بذنوبه متخلصا من عقاب الضمير ، فضلا عن عقاب العقل . . . ويشكوه همه وحزنه ليتبدل القلق واليأس الى امل مشرق وضاء .

كل هذا كان من طبيعة الدعاء . ولكن الاسلام لم يكتف بأن فتح باب الدعاء ، وانما علم قادته الانسان المسلم مايدعو به، ووضع ضوابط لتلك الحالة وانتاجها .

اما الضوابط فتأتي في محلها ، واما المضامين التي يدعو بها المسلم فان في مجالها حديثا طويلا ممتعا ، ولكن بحثنا لا يحتمل منه الا المقدار الذى يتصل مباشرة بالامل ، والا فكل المضامين تقريباً تؤدى الى تنمية الامل وضبطه ، وان كان ذلك بطريق غير مباشر .

ويمكن ان نعطي مضمون الدعاء في تنمية الامل وتأجيجه دور المؤكد لكل العوامل الاخرى ، التي تحدثنا عن تأثيرها في خلق الامل، من مختلف الجوانب العقائدية، والمفاهيم الاسلامية الاخرى .

ان الدعـاء بمضامينه الواردة عن اهل البيت عليهم السلام يقوم بتركيز تلك الامور وتوضيحها وتصحيحها، وبيان مقتضياتها على لسان نفس الداعى ، مما يشكل نوعـا من انواع التلقين الواعى للعقيدة الصحيحة . . . والتنبيه الى مستلزماتها الفردية والاجتماعية .

دعاء الامام الحسين

فدعـاء الامام الحسين عليه السلام يوم عـرفة ، يبدأ بتركيز العقيدة : « الحمد لله الذى ليس لقضائه دافع ، ولا لعطائه مانـع ، ولا كصنعه صنع صانع ، وهو الجواد الواسع » ... الى أن يقول: « اللهم اني أرغب اليك ، واشهد بالربوبية مقراً بانك ربي واليك مردى . . . » ثم يستعرض النعم التي انعمها تعالى بشكل لامثيل له ثم يقول: « صدق كتابك ــ اللهم ــ وانباؤك، وبلغت انبياؤك ورسلك.» ومن ثم ينتقل لمستلزمات ذلك الايمان ، طالبا توفيق الله لـه ليقوم بهـا : « اللهم اجعلنى اخشاك كأني اراك ، واسعدنى بتقواك ، ولا تشقنـى بمعصيتك ، وخرلي في قضائك . وبارك لـي في قدرك ، حتى لا احب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت . . . » .

ثم يلقن الانسان بأن يدعو الله تعالى لكي يحقق له ذلك التوازن الرائع بين اشباع جانبيه المادى والمعنوي . وفي ذلك ما فيه من نفي للقلق ودفع نحو الغاية : « اللهم اجعل غناى في نفسى، واليقين في قلبي ، والاخلاص في عملي ، والنور في بصرى ، والبصيرة في ديني . واجعل سمعي وبصري الوارثين منى . وانصرني على من ظلمنى . . . واجعل لي الدرجة العليا في الاخرة والاولى » .

والحقيقة ان الانسان ليجد الخطوط العريضة في المجال العقائدى والاخلاقي والتربوى موجودة في تلك الثروة الهائلة من الادعية .

ولذا فانه يستطيع ان يعطي الدعاء دور المؤكد والموضح لكل تأثيراتها التي مر شرح علاقتها بالامل .

التوبة والغفران وتأثيرهما فى فتح ابواب الامل :

التوبة : من مجموع المعاني المذكورة يعرف : ان معناها اللغوى هو الرجوع ، ومن هنا جاءت التعبيرات التالية كما في (مجمع البحرين ـ مادة التوبة) : « انه كان تواباً » : التواب : الله تعالى يتوب على عباده ، ولفظه من صيغ المبالغة ، اى : رجاع عليهم بالمغفرة . . والتواب من الناس الراجع الى الله تعالى . . « قالت : اني تبت اليك » أي رجعت الى معرفتى بك عن جهل .. « واليه متاب » اى مرجعى ومرجعكم . والتوب والتوبة الرجوع من الذنوب . وفي اصطلاح اهل العلم : الندم على الذنب لكونه ذنباً . وفي الحديث : الندم توبة » ووافقه على هذا الاصطلاح الراغب . والذي نرى ان بعض استعمالات التوبة تخرج عن

اصطلاح اهل العلم، الذي لابد وأن يكون معتمداً على الاستعمالات الشرعية .

الغفران : « الغفر : الباس ما يصونه من الدنس ، ومنه قيل : اغفر ثوبك في الدعاء. واصبغ ثوبك ، فانه اعفر للوسخ. والغفران والمغفرة من الله هو: أن يصون العبد من ان يمسه العذاب. والاستغفار يعنى أيضا : طلب محو النتائج المترتبة على الذنب ،وهو المتبادر من اللفظ » .

والمتحصل: ان التوبة تعنى الرجوع . والاستغفار يعنى: طلب التحصين تارة ، وطلب نفى الاثار أخرى . ولربما يطعم هذا بطلب التحصين. فهما ـ اي التوبة والاستغفار ـ من العبد ، والتوبة والغفران من الرب : أمران منشدان الى بعضهما .

ومن هنا جاءت الايات الكريمة: «افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه؟ والله غفور رحيم » المائدة : ٧٤ . « فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله توابا رحيما » النساء : ٦٤. « وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، يمتعكم متاعا حسنا » هود : ٣ .

والتوبة بالنسبة الى الله مظهر عظيم من مظاهر الرحمة الالهية التي تتجاوز العدل الى الاحسان ، فالعدل يعنى ان يحاسب المجرم، وأن يثاب المحسن بمقدار عمله، فى حين أن المسلم من خلال قرآنه يعتقد بان الله تعالى بمقتضى احسانه يرجع على العبد ويتوب عليه ،

فاتحاً له سبيل الرجوع اليه تعالى ، غافراله ذنوبه ان تحققت الشرائط، أي فاتحا له سبيل التوبة الى الله ، منقذا أياه مما أوقعه فيه هواه، ساداً ابواب اليأس وفاتحا أبواب الامل .

قال تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

ولاجل تحديد تأثيراتها في بث عنصر الامل في المسلم يجب ان نحددها بنحو الاجمال ، ويتم ذلك التحديد اذا لاحظنا النقاط التاليـة :

النقطة الاولى ـ التوبة للمطيع والعاصي معاً :

عندما يقال تاب شخص ، فان من المتبادر اليه : انه كان قـد اذنب ذنبا ثم رجع الى الله فطلب منه الغفران ، ولكن مورد استعمالات التوبة في القرآن تعم هـذه الحالة والحالة الاخرى وهي : مرحلة اللجوء الى التوبة لاجل تحصيل الاقربية من الله ، اذ كلنا يعلم ان القرب منه تعالى على درجات ومستويات، والتوبة احدى المقربات ، فلا يشترط في التوبة والرجوع الى الله ان يكون عن ذنب .

ومن هنا نعرف سر توبة الانبياء، المعصومين عن الزلل والذنب.

ومنه قول آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

وقول موسى عليه السلام : « سبحانك تبت اليك » .

وقول تعالى: « لقد تاب الله على النبي ، والمهاجرين، والانصار

الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم ، انه بهم رؤوف رحيم » التوبة : ١١٧ .

« فاستقم كما امرت ومن تاب معك » « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات » .

ويمكن القول بان التوبة تعني تحركاً نحو الاقرب فالاقرب دائماً منه تعالـى من جانب ، وانفتاح السبل امام المسلم للوصـول الى كماله في كل آن ـ بالتقرب منه تعالى، وبلطف منه ـ من جانب آخر ، ومن هنـا جاءت الآية الشريفة : « وتوبوا الى الله جميعا ـ ايها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

ومن هنا كان وصف الله تعالى نفسه بانه : « غافر الذنب قابل التوب » . كما أنه من هنا نجد ان من اول اوصاف المؤمنين التوبة في قوله تعالى : « التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون » التوبة : ١١٢ .

والذى يبين لنا هذا المعنى بوضوح : اطلاق عبارة «التواب» على المولى ـ جل شانه ـ والعبيد ، كما في قوله تعالى: « الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا ، فاولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم» البقرة : ١٦٠ .

« فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » البقرة : ١٢٢ .

فماذا تعنى عبارة التواب من العبد؟ هل تعنى الاذناب ثم الرجوع المتكرر ؟ كلا بالطبع ، وخصوصا اذا لا حظنا عبارة « ويحب المتطهرين » ، انها تعنى في الظاهر : ذلك الشعور والاحساس الذى يدفع العبد المؤمن دائماً وفي كل لحظة لان يستغل الابواب المفتحة للرحمة الالهية والتواب الرحيم ، لكى يدخلها ، محققا مقتضيات التوبة : من العمل الصالح والنية الحسنة ، وبالتالى متقدما نحو الكمال بدافع من امله العظيم بالله . يطلب منه تحصينه ضد اغواءات الشيطان .

والنتيجة : هي ان التوبة لها جوانب متكاملة :

أ ـ الجانب الاول :

وهو جانب رفض اليأس ، وفتح ابواب الخلاص من عذاب الضمير للمذنبين العاصين .

فان الانسان الذى قاده هواه الى الانحراف اذا وجد نفسه في عز انحرافه وقد صحت ، ورأى آثار الانحراف وانبه ضميره، وثارت في نفسه معانى الخوف من الله قبل كل شىء ، وهو الجبار ذو العذاب الاليم ، ثم من المجتمع فرأى أمامه مستقبلا مظلماً مكفهراً ، هذا الانسان يبدأ بالتفكير في الرجوع والاصلاح . وعندما يلتفت الى الخلف فانه ان وجد طريق الرجوع مغلقاً ولا مجال للخلاص فسيكون

امام اختيارين لاثالث لها :

فاما ان يبقى فريسة الخوف والهم والتمزق والندم الذي لافائدة فيـه ، ويكون بالتالى انساناً خائر القوى ، معذب الضمير ، واهي النشاط وعضوا مريضا معقداً ، ان لم يتضرر المجتمع منه فلا فائدة فيه مطلقاً ، وهذا اهون الشرين ، واما أنه ، ونتيجة للموقف الحرج الذى وجد نفسه في مرارته يتخذ مساراً حاقدا ، بعد ان يتصور نفسه محروماً من عطـف المجتمع وعطف الله تعالى فيصب جـام غضبه ويصعد من عملياته الاجرامية ، ويسير فى طريق الانحـراف حتى يبلغ منتهاه معوضا بذلك عن هذا النقص تعويضاً سلبيا عنيفا ، والنتيجة هى خسران المجتمع واعاقة المسيرة الانسانية المتكاملة .

فالنتيجة : على كلا الحالين هى التعويض السلبى وان اختلفت درجاته . ولكن الاسلام لم يدع هذا الانسان فريسة اليأس والضياع وأمامه مجال عمل طويل ، اذ فتح له ابواب الرجوع الى الله واحدة بعد الاخرى من الدعاء والتوبة والاستشفاع .

فالتوبة ـ ان تمت مقوماتهـا ـ تنقذ العبد من وساوسه وتعيد له الامل بالمستقبل الزاهر الذي تصوغه له رحمة الله ، وترجعه للمجتمع عضوا صالحا فعالا يعمل على رقيه وبنائه ، بعد أن كان يعمل على انحطاطه وانهدامه .

ب ـ الجانب الثانى :

جانب الاستزادة من القرب .

فالانسان المسلم مطلوب منه ولو على نحو استكمال النفس ان يستغفر الله فى كل آن ويتوب اليه ، فمن اعظم المستحبات الاستغفار فى كل آن، وخصوصاً عند الصلاة ، والروايات في ذلك كثيرة .

وواضح أن التلفظ تلقين للنفس بالسعى نحو تحقيق امل القرب منه تعالى ، الذى لايعنى ـ في منعكسه الاجتماعى ـ الا التكامل في المعرفة ، وما يتبع ذلك من التكامل فى الجوانب الاجتماعية . وما اروع ان يعيش الانسان وفى عينيه ـ في كل لحظة ـ بريق امل بتحقق الاحسن ، وتوبة تدفعه نحو تحقيق متطلبات حصول ذلك الاحسن فى كل مجال . ولربما كان هذا هو السر فى جعل الفلاح هو الغاية من التوبة في قوله تعالى: « وتوبوا الى الله جميعاً ـ ايها المؤمنون ـ لعلكم تفلحون » النور : ٣١ .

ج ـ الجانب الثالث :

جانب التحصين ضد اغراءات الشيطان .

أن التوبة كما تقدم يصاحبها طلب الغفران، وطلب الغفران يعنى طلب التحصين من كل مـا يمكن ان يرد على النفس الانسانية من

مغريات ووساوس شيطانية ، كما يعنى طلب محو الآثار التى انتجتها لحظات الانحراف السابق .

ان فتح باب طلب الغفران يعنى ان العبد يتصور نفسه يمتلك الاطمئنان والثقة بالمستقبل ، وبتحقق الهدف ، بعد ان طلب من القوة العظمى فى الكون ان تصونه من كل العوائق التحريفية ، والوساوس الشيطانية ، التى تزرع فى طريق تكامله الاشواك والعقبات.

والثقة بتحقق الامل من اكبر العوامل المؤثرة في منحه صفة الجذب نحوه . ويتضح هذا المعنى جيداً اذا تلونا الاية القرآنية الشريفة : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا » وكذلك الاية « وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله » .

فالسلطان الكامل لله تعالى . واولياء الله لاخوف عليهم ـ مما ينافرهم ـ ولاهم يحزنون على فقد مايلائمهم ، وليس هناك اى تأثير للشياطين على من منحهم الله غفرانه . فليعملوا مطمئنين واثقين وليسيروا نحو هدفهم ، فلهم بالتالى احدى الحسنيين .

النقطة الثانية :

التوبة الاسلامية تركيز لمعنى الارتباط المباشر بين المولى والعبد :

ان هذا الرجوع الى الله لايحتاج فى مقوماته الى توسط شخص

او مكان او ظاهرة طبيعية ، مهما كانت هذه الأشياء من العلو . انـه رجوع مباشر من العبد الى المولى وعملية ندم خالصة لا يعلم بهـا الا هو وربه . نعم هناك موارد تزيد من عمق اثر التوبة في النفس ، وتركز معنى الرجوع. وذلك اذاكانت التوبة لله أمام ولي من اوليائه الصادقين ، وفي مكان مقدس من امكنته ، ولكن كل هذا ، لاجـل تركيز التوبة . اما اصل التوبة فانها تتحقق بشكل مباشر وبلاتدخل أية ارادة لاى انسان آخر فيها ، اذا كانت في نفسها واجدة لبعض المقومات التي سنتحدث عنها فيما يأتي من نقاط .

فاذا كانت التوبة كذلك فهي اذن تجعل الاتصال المباشر بـالله امراً محسوسا به في الحياة . وهذا المعنى يمكننا ان نضيفه الى تلك الجوانب السابقة حيث تتكامل جميعاً في خلق الانسان الواعي العامل الساعي للقرب من الله في كل آن ، الشاعر بالاتصال المباشر بالقوة العظمى التي فتحت له برحمتها ابواب الخير .

ولكن الذى دعانا الى فصلها في نقطة مستقلة هو عرض صفـة مميزة للتوبة الاسلاميـة عن اساليب الغفران في الأديان المحرفـة اليوم ، وذلك كما ترى في طقوس الغفران المسيحية .

والنقطة الرئيسية في الافتراق هو الوثنية الشخصية في تلك الاديان، والاخلاص الكامل للعقيدة الالهية التنزيهية في الاسلام. اذ اننا بملاحظتنا لتلك العملية، واساسها المبتني على خرافة الفداء المسيحي، وطقوسها

التى طورتها المصالح الكنيسة ، والخرافات المضافة من قبل الأباء الروحيين ، وكيف يزداد الاجر المالى لتحصيل رضا الاب كلما ازداد عظم الجريمة ، فان لم يرض الاب فلا غفران ، وكيف كانت الكنيسة تبيع صكوك الغفران للعاصين ، بملاحظة ذلك نعرف :

ان سر الفرق هو: ان التوبة بمفهوم تلك الأديان رضا عبد عن عبد يستتبع رضا الله، بل قل يفرض رضا الله: وهو الشرك الصريح! اذا كان ذا موضوعية لاكاشفا عن رضا الله ، وهو روح ما نراه منهم ! فى حين ان التوبة بمفهومها الاسلامى ـ كما مر ـ لاتتطلب أي توسيط مطلقاً .

النقطة الثالثة

التوبة المقبولة .

وهذه النقطة نؤجل التفصيل فيها الى بحث ضوابط الامل ، وسنعرف ان شاء الله : ان التوبة المقبولة هى التوبة النصوح .

وفى معانى النصوح قيل : انها التى تنصح الناس ، وقيل: التى تنصح العبد، وقيل: الخالصة لوجه الله، وهو الظاهر من قوله تعالى : « توبوا الى الله توبة نصوحاً » وسئل الامام عنها ، فكتب عليه السلام: « ان يكون الباطن كالظاهر » .

وهذا الحديث يوضحها تماما ، اذ تعنى التوبة النصوح ذلك

الرجوع الذي يصاحبه العزم على المعنى في الطريق الاكمل، وتجنب الطرق الاخرى . ومن هنا فان بعض انواع التوبة لم يكن لائقا للقبول ، وذلك في مثل من تحدثنا عنهم الايتان الكريمتان :

« الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم » آل عمران : ٩٠ .

« ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا » .

اذ ان اولئك الذين تأصل فيهم العناد لايتصور فيهم النصح ومطابقة الظاهر للباطن، وان حصل رجوع فهو انما يعبر عن موقف عاطفي غير اصيل في النفس . وكذلك في مثل فرعون الذى تاب عندما ادركه الغرق :

« حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » .

ولكن المقطع الاخر يرده بقوله تعالى «آلان وقد عصيت قبل؟» يونس : ٩٠ .

وكذلك الاية الشريفة ترده بقوله تعالى :

« وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال : اني تبت الان » النساء : ١٨ !

وسيأتي مزيد من التفصيل في هذه النقطة في البحث المذكور.

الشفاعة ، ودورها كمؤكد للعفو والغفران ، ودافع نحو الاسراع فى تحقق الامل

وهذا المفهوم قد اعطى فى القرآن بصورة اجمالية مع تحديدات معينة ، وفصلته الروايات كثيراً .

فقد جاء فى القرآن الكريم :

« يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا » طه : ١٠٩ .

« وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » النجم : ٢٦. « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه» البقرة : ٢٥٥ .

« ولا يشفعون الا لمن ارتضى »الانبياء:٢٨. «لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهداً »مريم:٨٧ . « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ .

و فـي الحديث الشريف بسند صحيح عن الامام الصادق عليه السلام يقول سماعة : « سألته عن شفاعة النبي صلى الله عليه وآلـه يوم القيامة؟ قال عليه السلام : « يلجم الناس يوم القيامـة العرق ، فيأتون الانبياء العظام واحداً بعد واحد حتى ينتهـوا الى النبي صلى الله عليه وآله ، فيعرضون انفسهم عليه ، ويسألونه ـ أي الشفاعة ـ فيقول : انطلقوا فينطلق بهم الى باب الجنة ، ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجداً فيمكث ماشاء الله ، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعط . وذلك لقوله تعـالى « عسى ربك ان يبعثك مقاماً محموداً »[1].

وروى الصدوق عن طريق الاعمش عن الامام الصادق عليه السلام قال : « اصحاب الحدود مسلمون لامؤمنون ولا كافرون، فان الله تعالى لا يدخل النار مؤمناً وقد وعده الجنـة ، ولا يخرج من النار كافـراً وقد وعده النار والخلود فيها، ويغفر دون ذلك لمن يشاء . فاصحاب الحدود فساق . . . لا يخلدون فى النار، ويخرجون منها يوماً، والشفاعة جائزة لهم ، وللمستضعفين ، اذا ارتضى الله عز وجل دينهم » .

وروى العيـاشي باسناده الى عبيـد بن زرارة قـال : « سئل ابوعبدالله عليه السلام عن المؤمن هل له الشفاعة ؟ قال : نعم فقال له رجل : هل يحتاج المؤمن الى شفاعة محمد صلى الله عليه وآلـه

---

١) بحار الانوار ج ٨ ص٣٦ .

يومئذ ؟ قال : نعم ان للمؤمنين خطايا وذنوباً ، وما من احد الا يحتاج الى شفاعة محمد يومئذ .

الى ما هنا لك من الروايات الكثيرة .

والذى يهمنا أن نذكره اجمالاً ـ ويترك البحث فى اثباته تفصيلا الى محله من بحث الشفاعة العام ـ هو مايلى :

١ ـ الشفاعة تعنى : استغفاراً ودعاء من الشافع لله تعالى كى يحقق مقصود المستشفع ، سواء فى ذلك تحقيق أمل أو غفران ذنب .

وانما كان ذلك الاقتران بين دعاء الشافع ودعاء المستشفع ، نظراً لنقص وسيلة المستشفع وعجزها عن البلوغ الى المقصود ـ ولو فى تصوره هو ـ فيقرنها بمقام الشافع ليتم المقصود .

٢ ـ يمكننا ان نتصور نوعاً من الشفاعة غير شفاعة الاستغفار، فهنا نوعان من الشفاعة :

النوع الاول :

ما يمكن أن نسميه شفاعة العمل ، أو شفاعة الارتباط بالقيادة.

النوع الثانى :

ما يمكن ان نسميه شفاعة الغفران ، وقد يتفرع على سابقه .

اما شفاعة العمل :

فتختص بمجال النجاة ، ونيل الحسنات وعلو الدرجات في الاخرة ، في حين لاتصل الى مجالها الشفاعةالثانية . وهذا مايمكن أنيكون تفسيراً للحديث الشريف: «ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي ، امااالمحسنون فليس عليهممن سبيل » .

ونعني من شفاعة العمل او الارتباط :

ذلك التجسد والتجسم الذي يحصل يوم القيامة للروابط المعنوية القائمة في الدنيا ،كما ربما تحدثنا عنه الايات الكريمة « يوم ندعو كل أناس بامامهم » « يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار » .

فالتبعية آنذاك تتجسد ويكون النبي صلى الله عليه وآله شفيعاً لعلي عليه السلاموهكذاتتسلسل الشفاعة ويكون الحسينعليهالسلام شافعاً بلا واسطة اكثر من غيره .

وعلى هذا حملت شفاعة القرآن في قوله عليه السلام «القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق » .

فالعامل الاساسي في هذا النوع هو العمل وليس هذا النوع محل اشكال .

٣ـ ان شرط شمول الشفاعة للانسان هو شرط شمول المغفرة، وهو قابلية المحل، والايمان : « لايغفران يشرك به » . في حين يبقى علم باقي الشروط عند الله لاجل ان تبقى القلوب بين الخوف والرجاء .

٤ ـ ان امر الشفاعة اولا واخيراً يبدأ من الله تعالى ، فهو الذي يجب أن يعين الشفيع، والا كانت الشفعاء كما قال تعالى : « انهي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان» النجم: ٢٣ .

فالنظر يكون في الشفاعة متوجهاً الى الله : «ولو أنهم اذظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» . النساء : ٦٤ .

٥ ـ الشفاعة وجه من وجوه الرحمة الالهية التي رأيناها تتمثل من قبل في قبول الدعاء وقبول التوبة ، وسنراها متمثلة في أساليب اخرى ان شاء الله تعالى .

بعد توضيح كل هذا ، يتوضح دور الشفاعة في اعطاء عنصر الامل فعالية وقوة ، وتركيز الاطمئنان بتحقيق الامل .

ويمكن أن نرجع تأثير الايمان بالشفاعة في هذا المجال الى اربعة أدوار :

الف ـ دورها في عملية فتح باب الرجوع عن الانحراف .

ب ـ دورها في عملية الاطمئنان بتحقق النتيجة من تحقق درجة

قربية او حاجة او مطلب دنيوى .

ج ـ دورها فى عملية ايجاد نوع من الجزاء للعاملين على تحقيق الاهداف الكبرى .

ع ـ دورها فى عملية خلق الاتصال بالشافع وتأطير الامل فى حدود اهداف الشافع .

اما الدور الاول :

فقد مر بنا : انالتوبة تقوم بنفس هذا الدور وهو فتح ابواب العودة الى الطريق الصحيح ، وتحويل العناصر المنحرفة الى عناصرفعالة لصالح السير الايجابى للمجتمع، وتخليصهممنعذاب الضمير والقلق الذى هو اقل ما ينتج من الانحراف .

فما معنىالشفاعةاذناذاكانت التوبة والدعاء هىالبابالمفتوح؟

وعند الجواب عن هذا السؤال نود أن نؤكد على أنه :

١ ـ لتكن الشفاعة بابا آخر من ابواب الرجوع الى الله .

٢ ـ ولتكنللشفاعة فوائدهاالاخرىمنمثلماسيأتى منانهاتخلق نوعا من الربط الشديد بالشفيع ، ممايحققاهدافا كبرى تشترك فى صنع الهدف العام للخلق ، ففتح باب الشفاعة لفوائد خاصة تماماً كفتح باب الدعاء لفوائد اضافيةكما مر بنا سابقاً .

ومنجملة الفوائد: مايمكنناانفترضه من أن الانسانالمنحرف

قد يصل به الامر مرحلة يتصور معها ان توبته لن تقبل ، وان دعاءه لن يستجاب نظراً لعظم جرمه . وعلاج هذه الحالة سوف يمكن باعطائه اشعارا حسياً بأنه سيقترن مع طلبه ودعائه طلب من مقام عظيم وجيه عند الله تعالى . . . وهذا المعنى يمكننا ان نلاحظه بوضوح في اساليب طلب العفو التي تعلمها الأدعية المتفرقة. فهي تلقن الداعي ان يعيش آفاق عظمة محمد وآل محمد ، ويطلب منه تعالى ان يصلي عليهم بألسنة متعددة تحمل معها كل معاني الارتباط بهم، ومن ثم تلقنه ان يستشفع بهم من عظيم الذنب و كبر الانحراف، ولا نزيد في التوضيح بهذا المجال على ما مر بنا سابقاً .

واما الدور الثاني :

فواضح ان الاستشفاع بالانفس الطاهرة المقربة منه تعالى : وبنص منه تعالى على الاستشفاع بهم لاجل تحقيق آمال الانسان ، سواء كان ذلك من حيث القرب الى الله تعالى وتحقيق درجة اعلى من الرضا الالهي المطلوب، او من حيث تحقق الاماني والامال في السعادة والنصر وحل المشاكل ، هذا الاستشفاع له تأثيره في خلق اطمئنان بالنتيجة ، وهو يعطي الامل دفعاً لاجل ان يهيىء الارضية المساعدة لتقبل التأثير .

اما الدور الثالث :

فيتمثل ـ كما سبق ـ في اعطاء العاملين فى سبيل الهدف نوعا من الجزاء ، فقد وردت الاحاديث الكثيرة فى ان المؤمن يشفع في خلق كثير بأمر الله ، وتلك امنية عظمى للانسان المؤمن ان يقوم بالاستشفاع لانقاذ من يرتبط بهم بنوع من الارتباط ، وذلك اليوم يوم الجزاء والفزع الاكبر. ولعمري ان هذا المقام الذي يعطيه الله للمؤمن هو من اعظم انواع الجزاء تأثيراً فى نفسه ، وتحريكاً لحب ذاته في سبيل خدمة المجتمع والعقيدة ، والتضحية فى سبيلها بكل غال ورخيص .

وهنا تتخذ الشفاعة نفسها دور الامنية ، فتبعث على العمل لتهيئة الارضية المساعدة للحصول على ذلك الشرف الكبير .

واما الدور الرابع :

واخيراً فان الشفاعة فى (دورها الرابع) تخلق ذلك الارتباط العاطفى الواعى ، المؤطر باطار عقائدى بالشفيع ، اذ تركز منزلته لديه ، وتجعله يقتفي اثره . وهذا المعنى له تأثيره فى اعطاء الامل صبغة الشفيع ، ونعنى بذلك اعطاءه الصبغة التى يرضاها الشفيع تبعاً لرضا الله تعالى ، مما يضمن لنا املا صحيحاً واعياً . وسيأتى حديث حول هذه النقطة فى بحث ضوابط الامل ان شاء الله تعالى .

وهنا يمكن ان نضيف الى الموقف تأثير تصور النوع الثانى

من الشفاعة (وهو شفاعة العمل) فى خلق الاحساس والشوق الكبير للدخول فى موقف التبعية المجسد ، فى ذلك اليوم الذى « تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت » فينجو من تبعاته ، اذ يدخل فى الوفد الذى تحيطه عناية الرحمن ، ويقوده الشفعاء الذين يضللهم الرضا الالهى . والرضوان آنذاك اقصى ما يتصور من العطاء والنعيم : « ورضوان من الله اكبر » .

الفصل الخامس

ضوابط الامل

رأينا فيما مضى من حلقات : أن الامل محرك اساسي للانسان، وانـه كلما علا مستواه ارتفعت طاقة دفعه . وان الاسلام يمتاز على سائر ماعداه بانه يغرس في اعماق الانسان الامال الكبرى التي تضرب الى غاية البعد (الخلود) من جهة ، وتحتفظ بواقعيتها من جهة اخرى، وان وسائل تنمية الامل ، استمدت من العقيدة والمفاهيم الاسلامية فعاليتها وتأثيرها .

والان نحاول أن نتعرض الى الضوابط التي يعطيهـا الاسلام للامل لئـلا ينقلب على أهدافه ، ويحتفظ بما قلناه من التطابق مع الواقع ، وواضح أن الاسراف والافراط فيه، وعدم وضوح معالمه لاشك يؤديان بالانسان الى عواقب لاتحمد .

ان وعي متطلبات تحقيق الامل أمر يجب توفره دائماً عندمـا يراد الانسياق لتحقيقه . . . فكيف اوجد الاسلام ذلك ؟

لاريب في أن الاسلام يجعل الهدف الذي يعني تحقيقه تحقيق كل الامال الأخرى « رضاالله تعالى » فحسب ، باعتبار ان رضاالله عن العبد يعنى ان العبد استطاع ان يحصل على المكانة اللائقة به في الواقع ، وبالتالي فان ذلك سيحقق له أبعد الامال .

ورضا الله تعالى . . . يعني انه سيسعد العبد سعادة واقعية في الدارين : الدنيا والآخرة ، ولكن السعادة الدنيوية لايمكن ان تقاس الى سعادة الحياة الاخرى ، لان الحياة في هذه الدنيا تظل محجوبة عن الواقع الكثير ، في حين تكون تلك الحياة في قلب الواقع ، ولذا جاء القرآن الكريم ليقول « وان الدار الاخرة لهي الحيوان » و « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ولذا فان الهدف الاكبر والتجلي الباهر لرضا الله سيكون في الآخرة « ورضوان من الله أكبر » .

ومن هنا فقد جعلت الحياة الأخرى الهدف الاكبر في حين امتلكت الحياة الدنيا نصيباً من الاستهداف ، وتحقيق المتع المادية قسطاً من الدوافع « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا » وهذا النصيب الذي امتلكه تحقيق المتع المادية يؤطر بدوره بأطار الاخرة ، وينظر اليه كمرحلة لا كهدف ، ولذا يعبر الامام عليه السلام عن ذلك بقوله : « من أبصر بها بصرته ، ومن أبصر اليها أعمته » او « نعم العون على الاخرة الغنى » أو « البصير

منها متزود ، والاعمى لها متزود » .

وبعد سبر نظرة الاسلام الى المتع المادية نجدان القسم الطبيعي منها لـم يجد محاربة من الاسلام ، بمقتضى واقعيته واطلاعه على حقيقة النفس الانسانية ، الاأنه ـ اي الاسلام ـ حاول أن يجعل المسلم الكامل انساناً أطر كل حياته بأطار الاخرة والتقرب الـى الله تعالى ، في حين وقف بحزم ضـد الافراط في المتع المادية وشدة التأثـر بذلك الامل الـرخيص ، والوقوع في أسره ، وخصوصاً اذا تجلى في خلـد الانسان أملا طويلا يستنفد كل طاقاته ، فانه أمر يحاربـه الاسلام ويحذر الناس منه وينبههم الى عواقبه الوخيمة .

وقد دعا الـى تحقيق الزهد دعوة شديدة ، والزهد لا يعني الا التحرر من أسار هذه الامال الرخيصة التي ينظر اليها نظرة استقلالية.

وحذر من طـول الامل ـ بهذا المعنى الذي لا يستند فيه الـى خلفية أخروية ـ وذلك في نصوص كثيرة : منها الايات القرآنيـة الشريفة :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل » الحجر : ٣ .

« أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحيـاة الدنيا » القصص : ٦١ .

« ان يعد الظالمون بعضهم بعضاً الا غروراً » فاطر : ٤٠ .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة

منه وفضلا والله واسع عليم » البقرة : ٢٦٨ .

كما أننا نجد طائفة كبيرة من النصوص المرتبطة بهذا المجال في « نهج البلاغة » وكلها تبين وتوضح وتدعو الى قصر الأمل في الدنيا وفنائها هي وما أمل فيها ، الى غير ذلك فيقول الامام عليه السلام :

« ان اخوف ما اخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل » (ج ١ ص ٧٠) ويقول عن الدنيا : « ولا يغلبنكم فيها الامل » (ج ١ ص ١٠١) ويقول « واعلموا أن الامل يسهي العقل ، وينسي الذكر ، فاكذبوا الامل فانه غرور ، وصاحبه مغرور » (ج ١ ص ١٥١) ويقول عليه السلام: « والزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم ، والورع عند المحارم » (ج ١ ص ١٣٠) ويصف ابن آدم فيقول : « فان أجله مستور ، وأمله خادع له » (ج ١ ص ١١١) ويقول : « وحضرتكم كواذب الآمال » (ج ١ ص ٢١٦) ويصف الدنيا فيقول : « وتحلت بالآمال » (ج ١ ص ١١١) ويقول في كتاب له الى معاوية « وأحذرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية ، مختلف العلانية والسريرة » (ج ٣ ص ١٠) ويذم قوماً فيقول : « وتصافيتم على حب الامال » ج ١ ص ١٦) ويقول : « وانما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم ، وتغيب احلامهم » (ج ٣ ص ٣١) ويقول عليه السلام : « ان الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد اليها . . . . ان النعمة لن تسلب الا بكفر ، فيؤملهم بخير الدنيا ظاهراً » .

وجاء في دعاء كميل الذي علمه الامـام : « وحبسني عن نفعي بعد أملي ، وغرتني الدنيا بغرورها » .

كما انانلاحظ نفس هذا المعنى يأتي في دعاء علمه الامامزين العابدين لابي حمزة الثمالي، حيث يقول الداعي في مقام الاعتذار عن ذنوبه : وافنيت بالتسويف والامال عمري » .

هذا ، ويجب ان لايغيب عنا : انالمذموم في اكثر النصوص هو طول الامل ، اما الامل المعقول الطبيعي فهو يأخذ لنفسه نصيباً من الدوافـع ، وقد يكون ضرورياً ، ففي رسالـة الامام عليه السلام للاشتر يقول له حول الجند « فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم » .

هـذا كله في مجال استهداف المتـع المادية التي عبر عنهـا بـ« الدنيا » . اما في مجال الامال التي ترتبط بمسألة التكامل المعنوي: فاننا وجدنا كيف أن الاسلام دفـع الى تركيزها وتجسيدها في وعي الانسان ، ونحن نجد في الأدعية الفقرات التالية كتأكيد لذلك :

« وعظم فيما عندك رغبتي » ـ في دعاء كميل ـ وفي دعاء الثمالي: « الحمد لله الذي لا أرجو غيره ولو رجوت غيره لاخلف رجائي» « ومناهل الرجاء لديك مترعة » «افتراك يارب تخيب ظنوننا اوتخيب آمالنا ، كلا يا كريم ، فليس هذا ظننابك ولا فيك طمعنا ، يارب ان لنا فيك أملا طويلا كثيراً، أن لنافيك رجاء عظيماً » « الهي لوقرنتني

بالاصفاد، ومنعتني سيبك من بين الاشهاد ودللت على فضائحي عيون العباد ، وأمرت بي الى النار ، وحلت بيني و بين الابرار ، ماقطعت رجائي منك ، وما صرفت تأميلي للعفو عنك . ولا خرج حبك من قلبي » .

« فانما اسألك العظيم لقديم الرجاء فيك وعظيم الطمع منك: الذي اوجبته على نفسك من الرحمة والرأفة » .

وأخيراً فـ « انت موضع أملي » .

وهكذا يتعاظم الامل بالله الى أقصى حد، فيقول الامام عليه السلام مخاطباً المسلم : « كن لما لاترجو ارجى منك لما ترجو، فان موسى بن عمران خرج يقتبس لاهله ناراً فكلمه الله عزوجل فرجع نبياً » .

ولكن هذا الامل العظيم يقترن بمقتضيات تجعله املا صادقاً ، ورغبة خالصة ، والا فهو مجرد كذب وخداع .

فان مثل هذا الامل يجب ان يشكل منطلقاً نحو تحقيق مقتضياته، ورأسمالا للعمل على تنفيذها. اذ المؤمن « رأسماله الرجاء » ، منه يندفع نحو العمل الصالح وبطاقته يقتحم الصعوبات ، اما اذا عدم العمل بمقتضيات الامل فهو كاذب خداع .

يقول القرآن الكريم :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً » الكهف:١١٠.

ويقول الامام امير المؤمنين عليه السلام :

« ألا وان اليوم المضمار، وغدا السباق والسبقة الجنة،والغاية النار ... ألا وانكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ، ولم يضرره أجله ، ومن قصر في أيام أملهقبل حضور أجله فقدخسر عمله وضره أجله » (ج١ص٧٠).

ويقول عليه السلام :

« الا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة . ألا واني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها » .

وعن ابن ابى نجران عن ابى عبد الله عليه السلام قال : قلت: قوم يعملون بالمعاصى ، ويقولون : نرجو ، فلايزالون كذلك حتى يأتيهم الموت ؟ قال : « هؤلاء قوم يترجحون فى الامانى . كذبوا ليسوا براجين ، ان من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيءهرب منه » (وفسر الترجيح بالتأرجح) (سفينة البحار ج ١ ص ٥١٢) .

وقد روي عن امير المؤمنين عليه السلام قوله :

(يدعى انه يرجو الله . كذب والعظيم ! ماباله لايتبين رجاؤه فى عمله ؟! وكل من رجا عرف رجاؤه فى عملهالا رجاء الله فانه مدخول ، وكلخوف محقق الاخوف الله فانه معلول » !!(الوسائل ج ١١ ص ١٧١) .

وعلى هذا ، فقد اقترن الرجاء والامل بالحذر من المخالفة والانحراف اقتراناً قوياً اذ يقول تعالى :

« يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه » (الزمر : ٩) :

وجاء في دعاء ابي حمزة الثمالي :

« اذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت ، واذا رأيت كرمك طمعت »

وفي موضع آخر : « ولك خالص رجائي وخوفي » .

وهكذا يتأكد في خلد المسلم خط متوازن هو خط الخوف والرجاء .

كل هذا كان لتركيز الامل الحقيقي بصورة عامة وكنتيجة .

امـا في مجال تأثير اسباب الامل وضوابطها فهذا يحتاج منـا لمراجعةعامة سريعة لها، والاطلاع على الشرائط التي يضعهاالاسلام لتأثيرها .

واذا رجعنا الى منميات الامل ومقوياته في العقيدة :

من الجنة ونعيمها والرضوان الالهي وعطائه ، وجدناأنالقرآن الكريم في نفس الوقت الـذي يعرض لنا فيه من ذلك صوراً هي غاية فيالروعة، يعرض علينا أيضاً صوراًمن العذاب الشديد للعاصين هي غاية في الروع ايضاً، ولانريد هنااستعراض ذلك،بل نشير الىأن عرض صور العذاب الى جنب عرض صور النعيم لايقلل مـن حدة الشوق الى النعيم بل قديزيده بتقوية النفور من ضده . ولكنه على أيحال يوجد الوعي بصورة اكمل للزوم الالتزام بمقتضيات تحقيق

أمل الفوز بالنعيم، او فقل يوجد التوازن المطلوب الذي به يتحدد الانسان بالحدود الواقعية للامل ، ولا يخرج على حدوده ، فيعيش في عوالم خيالية مصطنعة قد تتخيل له فتصور له ـ مثلا ـ انرحمة الله تعالـى لما كانت هي الأصل في كل موقف فليفعل هو ما يشاء وسوف تشمله تلك الرحمة ! انهذا التصور لاريب يعني القضاء على الاهداف وتضييعها ولكن صور العذاب ، تكشف له عن الواقع ، وان الله تعالى سيعاقب المنحرف أشد العقاب ، لانه لم يلتزم بمقتضيات تحقيق الامل :

« نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الاليم » .

وفي الرواية عن الحرث بن المغيرة أو أبيه عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

« قلت له : ما كان في وصية لقمان ؟ قال : كان فيها الاعاجيب، وكان اعجب ما كان فيها أن قال لابنه : خف الله خيفة لـو جئته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك. ثم قال ابوعبد الله عليه السلام :كان أبي يقول : ليس من عبدمؤمن الا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا » (الوسائل ج ١١ص١٦٩).

وعن ابي حمزة الثمالـي قال : قـال الصادق جعفر بن محمد

(عليهما السلام) : « ارج الله رجاء لايجرئك على معصيته ، وخف الله خوفاً لايؤيسك من رحمته » .

والمفهوم من مجموع الروايات : ان هناك تناسباً طردياً بين تعمق الايمان وتعمق الخوف والرجاء . وقد يخطر بالبال ان الرجاء والخوف ـ كما هو تعبير الرواية ـ ككفتي ميزان ، فكيف يمكن تعميقهما ؟ اذ لو زاد هذا نقص ذاك مثلا ؟

الا أن هذا الخطور ليس بصحيح بعد الالتفات للنقاط التالية:

النقطة الاولى :

ان تعمقهما قد يكون المراد منه وضوح المحتمل وجلاله لدى النفس ، لاارتفاع درجة الاحتمال ليأتي ذلك الخطور مثلا، اذ فرق بين (الرجاء والخوف) الصادرين من شخص عادي ينظر للامور بسذاجة ويقيسها على حياته و(الرجاء والخوف) الصادرين من انسان بعيد النظرة ، قربت العوالم المعقولة لديه الى عالم الحس، فاصبح يحس بهول النار وروعة الجنة عياناً ، وذلك كما يقول امير المؤمنين عليه السلام فى وصف المتقين :

« عظم الخالق فى انفسهم ، فصغر ما دونه فى اعينهم ، فهم والجنة كمن قد رأوها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رأوها

فهم فيها معذبون .... فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً ، وظنوا انها نصب اعينهم . واذامروا بآية فيها تخويف ، اصغوا اليهـا مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم ، وشهيقها فى اصول آذانهم » (نهج البلاغة ـ فهارس الصالح ص ٣٠٤) .

النقطة الثانية :

ان من الممكن تصور ارتفاع درجة الاحتمال فى كل منهما مع اختلاف فى متعلقهما ، اي أن يقوم الأمل ـ مثلاً ـ فى رحمة الله تعالى وعفوه فيأمل الانسان فى ذلك املا بعيداً ، فى حين يتضخم الخوف من سوء العاقبة . وهناك اخبـار تتحدث عن هذا المعنى فعن امير المؤمنين عليه السلام قال : « ان المؤمن لايصبح الا خائفاً وان كان محسناً ، ولايمسي الا خائفاً وان كان محسناً ، لانه بين أمرين : بين وقت قدمضى لايدري ماالله صانع به ، وبين أجل قد اقترب لايدري ما يصيبه من الهلكات » (الوسائل ج ٦ ص ١٧٥) .

وعن ابى عبيدة الحذاء عن الصادق عليه السلام انه قال :
« المؤمن بين مخافتين ، ذنب قد مضى لايدري ماصنع الله فيه وعمر قد بقي لايدرى مايكتسب فيه من المهالك . . » (الوسائل ج٦ ص١٧٢)

وتدعو بعض الروايات الى التركيز على العاقبة ، فان الخوف من سوئها يدفع الانسان نحو العاقبة الحسنة ، ويتقوى أمله اكثر فاكثـر .

فعن الامام العسكرى عليه السلام عن آبائه قال : قال الصادق عليه السلام : « ان الرجل ليكون بينه وبين الجنة اكثر ممـا بين الثرى الى العرش لكثرة ذنوبه ، فما هو الا أن يبكي من خشية الله عزوجل حتى يصير بينه وبينها اقرب من جفنه الى مقلته » .

وفى الحديث عن الصادق عليه السلام :

« حسن الظن بالله ان لاترجو الا الله ، ولا تخاف الا ذنبك ».

النقطة الثالثة :

ان قوة الخوف والرجاء قد تأتي من ناحية أثرهما في النفس وانعكاسهما على السلوك الخارجي .

فالقوي منهما هو الذي يوجه سلوك الانسان لصالح الهدف .

يقول الصادق عليه السلام :

« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولايكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » (وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٧) .

ومن الطبيعي ان يكون لدرجات الايمان دورها فى فاعلية الخوف والرجاء .

فهناك درجات من الايمان يحتاج المرء معها لان يتوفـر على درجة من الخوف والرجـاء حتى يضمن السير المتوازن ، وهناك

درجات من الايمان قد يؤمن فيها من الانحراف حتى لو وجد احدهما فقط ، فاذا وجد الاثنان كان تحقيق الغاية اضمن من ذي قبل .

النقطة الرابعة :

ان نرجع الى ما قلناه في النقطة الاولى ، فنعمق الاحساس بالنار والجنة اكثر، بأن يحس الانسان باللذائذ المعنوية التي سيحصل عليها ـ اضافة للذات المادية من الحور والجنان ـ واروع ما فيها هو (رضوان الله تعالى) فهو النعيم الاكبر . كما يحس بالعذاب المعنوي الشديد الذى يتجاوز العذاب المادى، وذلك ماعبر عنه المقطع الرائع من الدعاء : « فهبني يارب صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك » .

وعلى اى حال :

فالخوف والرجاء اذن متساويان في خلد الانسان المؤمن ومتكافئان يعملان جنباً الى جنب في تحقيق الغاية المنشودة .

واذا انتقلنا الى الاعتقاد بالنبوة وفروعها والامامة ومقتضياتها ، وجدنا التأكيد الشديد على لزوم الانخراط فى صف العاملين والملتزمين بكل تعاليم الشريعة، حتى يمكن تحقيق الاهداف الكبرى التى يرسمها فى الذهن ذلك الاعتقاد .

ولا أرى فعلا داعياً للتفصيل والتعرض الى الروايات التى تعرف المسلمين حقيقة المسلم ، وحقيقة الانسان الموالي لاهل البيت عليهم السلام الذى له الحق أن يأمل بالفوز فذلك امر له محله .

فى مجال القوانين القرآنية :

اما فى مجال القوانين القرآنية التي مرت علينا من قبل : فانه من الواضح ان كل حكم يتقيد بموضوعه، وما لم يتحقق الموضوع فليس من الصواب ان نتوقع حدوث الحكم. ومن هنا ،فان المسلم عليه ان يحقق مواضيع تلك القوانين حتى يأمل الحصول على احكامها . .

فمثلا يجب أن يكون على الحق لينسجم مع سر الوجود ، ومع العدل ليكون مؤيداً بالقوانين السارية فى الكون ، ومع الايمان ليتوقع النصر وهكذا .

واخيراً فانا استعرضنا بعض القوانين التى يعتقد المسلم بتأثيرها تماماً كما يعتقد بتأثير القوانين الحسية ، وهذه القوانين لها قيودها ايضاً ، وهي تضمن لها الاداء الصحيح وعدم الانقلاب الى الضد . وهنا نحن نستعرض بعضها بايجاز :

الدعاء :

وقد جعلت لاستجابته شروط ، وعمدتها الاقبال بالقلب، وهو أحد أسرار تشريع الدعاء ، فقد قال الصادق عليه السلام :

« من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبدالله من نفسه » (الأخلاق - شبر - ص ٦٢) وقال امير المؤمنين عليه السلام « لا يقبل الله دعاء لاه »(نفس المصدر) .

وعن الصادق عليه السلام قال :

« احفظ آداب الدعاء،وانظر من تدعو ، ولماذا تدعو،وحقق عظمة الله وكبرياءه ، وعاين بقلبك علمه بما فى ضميرك ، واطلاعه على سبرك ، وما كمن فيه من الحق والباطل ، واعرف طرق نجاتك وهلاكك ، كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تنظر ان فيه نجاتك » (نفس المصدر) .

وسئل الصادق عليه السلام بعد أن قرأ : « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » : ما لنا ندعو ولايستجيب لنا ؟ فقال : « لانكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون ما لاتفهمونه » .

نعم ان كل هذه الامور وغيرها توضح مسيرة الداعى، وتجعل مفهوم الدعاء يؤدي دوره الصحيح .

وأما التوبة :

فيكفـي أن نقول : ان التـوبة المطلوبة من العبد هي التـوبة النصوح ، أي التى قامت على اساس تصميم وعـزم صحيح على الاقلاع عن الذنب والسير فى الطريق المستقيم .

وقـد روي أن رجلا قال بحضرة امير المؤمنين عليـه السلام « استغفر الله » فقال له :

« ثكلتك أمك ! أتدرى ما الاستغفار ؟

الاستغفار درجة العليين . وهو اسم واقـع على ستة معاني : –

اولهـا : الندم على مامضى .

والثاني : العزم على ترك العود اليه أبداً .

والثالث: أن تؤدى الى المخلوقين حقوقهم ، حتـى تلقى الله املس ليس عليك تبعة .

والرابـع : ان تعمد الى كل فريضة ضيعتها تؤدي حقها .

والخـامس : أن تعمد الى اللحـم الذى نبت علـى السحت فتذيبه بالاحزان ، حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس : ان تـذيق الجسم ألم الطاعة ، كما أذقته حـلاوة المعصيـة .

فعند ذلك تقول : استغفر الله .

اما مفهوم الشفاعة :

وهو الباب الاخر للامل ، فقد صرحت الايات بأنها لن تكون الا لمن ارتضى ، فالاهلية شرط اساسى لكي يقع المشفوع له مورداً لشفاعة الشفيع .

وهكذا رأينا الشروط العامة والخاصة كلها تؤكد على أن لا ينتقض الغرض من فتح ابواب الامل ، فيعود الامل غروراً ، ومحفزاً للانحراف ، بعد ان كان قد اريد له أن يكون الدافع نحو التكامل والهدف التشريعى المنشود .

وهذا الابهام من مستقبل شفاعته ـ ومثله الابهام فى مستقبل توبته ـ له أثره الكبير فى منع تحول الشفاعة والتوبة والدعاء وغيرها من ابواب الامل الى مبررات للانحراف . . . ومن هنا فهي تؤدى دورها الايجابى ، وتمنع ضوابطها والابهام فى مواردها من الاستغلال .

ولا يفوتنا هنا التنبيه الى نقطة تتفرع على لزوم اهلية المستشفع للشفاعة ، وهى: مسألة لزوم أن تتأطر اماني المستشفع بصيغة الشفيع واهدافه ، وهذا يضمن لنا بالتالي صحة المسار المختار وواقعية الاهداف وانسجامها مع أهداف الشفيع نفسه .

ـ استعراض وربط ـ

بمراجعة فاحصة لما سبق عرضه من العقائد الاسلامية، والقوانين التي يصبها الاسلام في ذهنية الانسان المسلم ، تتوضح لنا معالم الموقف ، وروافد الامل الكبرى في تلك الذهنية ، والتي كان المفروض فيها أن تتحول الى ايجابية واقعية نحو اقامة المجتمع الوسط ، ومواصلة المسيرة الخيرة الى الغاية الخيرة .

اننا سندرك بهذه المراجعة: ان الاسلام يتخلص من نقطة الضعف الكبرى التي شلت المبادىء الوضعية عن العمل فى صنع التاريخ ، وعن اشباح الطموح الانساني الوثاب الذي يعتبر وقود العمل على طول الخط ، وتلك النقطة هي : (التحديد المادى) .

فعلى العكس من ذلك نجد ان الاسلام يربط الطموح بغاية ما يمكن أن يطمح اليه الانسان وهل هناك غاية اروع من الخلود الواقعى في درجة هي غاية من السعادة في جنة ، هي غاية فى الاشباع النفسي والجسمى « فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين » و «رضوان من الله اكبر » . . . وهنا يمكن ان نستعرض مختلف انواع الملذات الاخروية التى يعرضها القرآن الكريم ، بل يستعرض بعضها ، لان فيها « مالا عين رأت ولا اذن سمعت » .

واذا ثبت كل ذلك كانت كل تلك التضحيات الغالية منطقية

جداً ، ومنسجمة جداً مع اسسها واهدافها البعيدة . .

. . . ولنا بعد ذلك ان نستعرض نقاط الضعف السابقة ، والتي لازمت المبادىء الوضعية ، فنجد انها تتحول الى نقاط قوة عند المبادىء الالهية التي يتوجها الاسلام ، لاحتوائه على كل حسناتها وزيادة .

وقد سبق ان المبادىء الوضعية لاتمتلك الا اهدافا محددة ، وبنظرة ـ ولو سريعة ـ الى العقيدة الاسلامية والاهداف التي يحددها القرآن للانسان فى الدنيا والاخرة يمكننا أن نجد البون الشاسع بين الاهداف ، فان المسلم يعتقد : أن الوحي استهدف دنيوياً : ان يسلك بالبشرية صعداً نحو تحقيق مجتمع العدل والسعادة ، حيث تملأ الارض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً ، وسنتحدث فى الخاتمة عن دور انتظار ذلك اليوم فى الدفع نحو العمل .

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بشكل طبيعي واقعي ، تسعى الهداية الالهية لمسايرة المسيرة البشرية وبعث انوار الحق كلما خبت مركزة العقيدة شيئاً فشيئاً ، وبشكل يتناسب مع كل مرحلة من مراحل عمر الانسان . . . فلا عجلة في الطريق . . ولا يأس من الوصول.

هكذا يعتقد المسلم على ضوء تعاليم القرآن الكريم . . . ان العالم سيصل الى دنيا المتقين . . فى مسيرته الطويلة فكل النبوات تعتبر فى نظره خطوات على الطريق نحو اليوم الموعود . . غاية الامر

ان هذه الخطوات تمر بمنعطفات تاريخية ، كما فى الانبياء اولي العـزم .

والمسلم عندما يعتقد ذلك يمتلك المبررات التى تجعله ينتظر هذا اليوم بمزيد من الشوق . . . فانه يستمد حتمية مجىءهذااليوم من امور كثيرة واهمها :

وعدالله تعالى به .. وهو تعالى عالم بكل اسرار الكون، لانه خالقه وبارئه ، والمحيط بكل ما يمر به المجتمع الانساني كجزء من احاطته بالكون ـ من عقبات وانتصارات . . فهو عندما يخبر عن ذلك فانه لا شك حاصـل . . ولن يقلل من الايمان بوجوده ما يشاهده مـن طغيان الظلم والانحراف . . فان المسلم يعتقد بان الحق سينتصـر «فاما الزبد فيذهب جفاء ، وما ماينفع الناس فيمكث فى الارض ».. وان العاقبة للمتقين . . وان للباطل جولة وللحـق دولة . . وان الله سينصر رسله . وان حب الله تعالى لـه سيكون واسطة الى بلوغـه الهدف الاسنى فى الارض . . وأنه اذ يعمل على نصرة الحق فانه يهيىء الارضية الملائمة لعمل القوانين الكونية العامة التي تقوم بالحق.. وهكذا . . فان العدل هو الذي سينتصر فى النهاية الحتمية .

كما انه من الامور التي تركز ايمانه بحتمية اليوم الموعـود نفس اعتقـاده بان الدين فطري ، وان كـل الانحرافات انمـا تعتبر غشاوات على الفطـرة ومن هنا فلا يجد اي مانع من زوال هـذه

الغشاوات بعد توفيق من الله تعالى، وعمل جاد من الوعاة الحاملين للواء العقيدة .

ومما يزيد المسلم اصراراً على اعتقاده . . ويقوي فيه أمله . . وخصوصاً في مثل هذه العصور . ، ماهو الواقع من مرور العالم بتجاربه الكثيرة مع المبادىء الوضعية .. وملاقاة الامرين من ذلك.. فقد أكد الكثيرون من المفكرين زيف ما تدعيه هذه المذاهب من خيالات مسرفة لا واقع وراءها . . وبالخصوص ما لاقاه العالم من المبدأين المتصارعين الكبيرين : **الاشتراكية والرأسمالية** . . مما جعله يؤمن بافلاس الحضارة المادية ويتجه ـ بكل خجل وشوق ـ نحو الحياة التي تجمع بين الاشباعين المادى والروحى . . ولن يجد امامه ـ وهو فى هذا الاتجاه ـ الا الاسلام ، والاسلام وحده كبديل لهذه الحضارات الخاوية الباطن البراقة الظاهر ، والتي حولت الانسان الى آلة في تفكيره وتصرفاته كلها ففقد معها اصالته الانسانية وسيأتى الحديث عن هذا المجال .

وهذا الامل لن يوضع فى أطاره الحقيقى الا اذا انظم اليه الاعتقاد بأن الانسانية (كل مترابط) وان كل سلوك يسلكه اى فرد له تأثيره ـ وان كان ضئيلا ـ فى المستقبل . . مما يستتبع أن تقوم البشرية في كل عصر بالثناء والشكر لصالح كل انسان عمل على أن يدفع بالركب الى الامام ، وان يحقق الانفتاح على واقع أفضل لها.

وهذاالثناء والشكر لن يكون له أى مؤدى واى فائدة الا اذا انظم اليه الاعتقاد بوصوله على هيئة درجات ترفع ، ومقام يعلو .. وحسنات تضاف الى ذلك الانسان الذى قد يكون قد توفى منذ عشرات القرون . . وهذا بدوره لن يكون الا بالاعتقاد بالاخرة والحياة الخالدة .

والمسلم هو الذى يعتقد بكل هذه الاطر تماماً . اذ الاسلام يجعل المؤمنين ـ قبل كل شيء ـ رتلا واحداً له مسيرة واحدة ، ومستقبل واحد ، ويرى ان اى عمل يمكن ان يؤديه سابق يوجب على اللاحقين أن يقوموا بازائه باداء حقه من الشكر ، فضلا عن حمل رسالته ودفعها للامام .. وهذا الشكر يتمثل فى دعاء المؤمنين لمن سبقوهم بعلو الدرجات .

واروع صورة لهذا الدعاء : الصلوات التي يرسلها المؤمن المسلم فى صلواته اليومية وغيرها الى محمد (صلى الله عليه وآله) واهل بيته عليهم السلام باعتبارهم ارفع مثل للعمل الجاد الواعى المضحي فى سبيل مستقبل الانسانية .. وما اروع ان يقوم المسلمون بشكر قادتهم ، والدعاء لهم ، والطلب من الله تعالى ان يغمرهم بالصلوات والخيرات على مر العصور .

ومن هنا يدعو المسلم لاخوانه الذين سبقوه بالايمان « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان » الحشر : ١٠ .

وجميل ان نجد المسلم فى نهاية كل صلاة يسلم على عبادالله الصالحين ، من سبقوا ومن هم فى هذا العصر ومن لم يولدوا بعد.

ومن هذا القبيل مايكاد أن يصبح من المسلمات لدى المسلمين انه « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة» فهذا المضمون وارد في احاديث عديدة .

منها ما عن الصادق عليه السلام : « ليس يتبع الرجل بعد موته من الاجر الا ثلاث خصال : صدقة أجراها فى حياته ، فهي تجري بعد موته ، وسنة هدى سنها فهي يعمل بها بعد موته ، وولد صالح يستغفر له » .

وعن ابي جعفر عليه السلام قال : « أيما عبد من عباد الله سن سنة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك ، من غير أن ينقص من اجرهم شيء ، وايما عبد من عباد الله سن سنة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير ان ينقص من اوزارهم شيء » .

وهكذا يتجاوز فاعل الخير المسلم حدود حياته هو وحتى حدود ما يمكن ان تكون حياته قد قدمت له من ثواب في الاخرة، الى حيث يتصور التسلسل اللانهائي تقريباً للخيرات التي سيغرس بذرتها ... فهو على لسان من يأتون بعده : دعاء بالخيرات والخير، وله من كل ما يعملون اجره الذى ينتظره . . في حين ينقلب هذا

الامر بالنسبة للمسلم الذي يريد ان يقدم على عمل السوء ، فانه سيتصور لعنات الاجيال الاتية ، المآثم الكبرى التي ستلاحقه بعد موته فتتضاعف عليه بمقتضى هذا القانون المعنوي القائم كسنة كونية عامة .

فالمؤمن ـ اذن ـ تصله خيرات السابقين واللاحقين، ويوم القيامة بعد لم يقم .. اذ هو يمر بعالم متوسط اطلق عليه اسم «البرزخ».

هذا كله في اطار الهدف الذي يمكن ان تجنيه الانسانية بوجودها الممتد في الحياة الدنيا، وان كانت بعض الأطر تتجاوزها الى الاخرة لتوجد الربط بين الاعمال السابقة واللاحقة . وكل هذا ـ لعمري ـ يكفي في ان يشكل دافعاً قوياً ومبرراً صالحاً لما يحتاجه اي مبدأ من تضحيات وجهود كبرى .

ولكن كل هذا . . يعتبر لاشيء اذا قيس لما يعتقده المسلم من ما سيكون في عالم الاخرة من جزاء عظيم ـ ان سلباً او ايجاباً .

وهكذا . . . .

. . . يقوم المسلم بالعمل لصالحه هو ولصالح مجتمعه ، ويعيش حياة اخلاقية عالية تتجلى فيها الانسانية بأجلى مظاهرها . ويطبق باقي اجزاء النظام البناء الدقيق، والذي روعيت فيه العدالة بدقة وتوازن . . بعد ان يعتقد بما تمليه عليه فطرته . . وبما ينقذه من عالم الضياع والقلق .

وما أن يقوم بهذا، او يعمل على الوصول اليه حتى يكون مؤهلا

لخيرات عالم الآخرة الفسيح .

وهذه الخيرات الموعودة تتزايد وتتضاعف كلما صدر من المسلم عمل خير فى هـذا السبيل فكل الاعمال التى تعتبر في الحسـاب المادى خسارة ما بعدها خسارة تتحول هنا الى ربح ما بعده ربح .

وعندها ، تهون كل الشدائد والمصائب وتذوي كل العقبـات الطارئة المؤقتة . . . . . بعد ان تتعلق روح المسلم بعالم الخلود الموعود .

«ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا . . . . الا كتب لهم به عمـل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً . .. الا كتب لهم، ليجزيهم أحسن ما كانوا يعملون » .

ان الآخرة لتملك على الانسان لبه . . فتجعله يتعشق ما يهيىء فيها اكبر اسباب الراحة . . . ويتنافس فى فعل الخيرات .

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

وانها لتقلب المفاهيم المادية القائمة على المصلحة واللذة، والمال والغنى ، والفقر . حتى أن الفقراء جاؤوا الـى النبي صلى الله عليه وآله يشكون من فقرهم لا لشيء الا لانهم لا يستطيعون الانفاق في سبيل الله تعالى .

واخيراً

فمن خلال هذا العرض الرابط السريع نستطيع ان نقول :

ان الخلود الاخروي فى ذهن المسلم يختلف كثيراً عن الخلود الذي تنادي به الشعارات الوضعية ـ بل لاربط له به ـ اذ ذلك الخلود خلود الشعارات البراقة ، والخيال المجنح ، والسراب الكاذب لاغير.

بينما يستمد الخلود الاخروي ضماناته من قدرة الله تعالى ووعوده للمؤمنين .

مفهوم الانتظار ودوره:

وهنا لابد من الحديث عن مفهوم الانتظار والاعتقاد بالمهدى المنتظر عليه السلام واثره فى تقوية الامل وتجسيده :

فرغم ان هـذا الاعتقاد اريد له ان يكون عالميا ، وانـه جاءت به كل الاديان السماوية ، الا أن التشويهات والتحريفات والتعصبات حاولت حصره فى نطاق ضيق من الامة الاسلامية ، فافقدته الفاعلية المطلوبة على الصعيد العالمى. هذا من جهة .

واما من جهـة اخرى : فان التصور الخاطىء لعملية الانتظـار وملاحظته كموقف سلبى : قضى على مفعولها تقريبا ، بل حولها الى تبرير غريب للحالات اليائسة ! .

ان هذا المفهوم لـو وضع فى اطاره العام الصحيح وهـو : الاستعداد والهيؤ للاشتراك فى الانخراط فى اتباع المصلح السماوى الذى سيملأ الارض قسطاً وعدلا ـ وهو الامام المهدى عليه السلام

والذى سيجعل « الدين كله لله »، فانه سيكون له التأثير الكبير جداً في حياة المنتظرين ، اذ سيدفعهم لاعداد الارضية فى انفسهم وفى مجتمعهم لذلك الحدث الكبير. انهذا الانتظار سيملأ وجودهم، ويستغرق كل انماط سلوكهم ، ويجعلهم يتبعون كل السبل فى سبيل تحقيق ذلك الامل المنتظر .

ولقد أكد بعض علماء النفس على انه يجب ان نركز على ان العمل الانسانى قائم فى اساسه على انتظار شيء ، ومتى ماخلا الانسان من الانتظار فقدمات سلوكياً .

واذا كان ذلك صحيحاً فما اروع وما ابعد مدى هـذا الانتظار الاسلامى للمصلح العالمى ويومه الموعود .

والنقطتـان الاساستان فى الانتظار اللتان تعمـلان على ازدياد تأثير الامل فى الانسان المسلم، وتقريبه من عالم التجسيد والحس هما:

الـف :

انـه يركز فى اعتقاد الانسان المسلم الايمان الكامل بالموجـود الحسى الحى ، الذى يعيش معه فى هذه الدنيا كما يعيش هو،ولكنه اختفى عن العيون بقـدرة الله تعالى ، ولكنه عليه السلام يراقب ـ حساً ـ عمل المؤمنين ويتابع خطواتهم استعدادا لذلك اليوم .

انهذا الشعورـ بالاضافة الى معطياته الكثيرة ـ ليمنح الانسان دفعا اكبر نحو شدة المراقبة ، وشدة الوعى ، وشدة العمل.وذلك

بشكل يعجز عن وصفه التعبير اللفظى .

كما انه يضل يستصرخ المسلم ويزيد من شوقه ، ليعمل كل ما يمكن فى سبيل ظهوره عليه السلام وانتقاله من عالم الخفاء الى مسرح القيادة .

فالاحساس بمراقبة الامام للخطوات ، والاحساس القائم بكون الامام فى عالم الخفاء والغيب عن الابصار : كلاهما يملكان تأثيراً كبيراً فى صبغ عمل الانسان بالوعى ، والشدة ، والاتساع .

ب :

ان الانتظار يركز فى عقيدة المسلم : ان النصر مضمون فى الدنيا قبل الاخرة ، وانه سيحس به ويتأثر به عالمه الحسى هذا . وهذا له تأثيره الفعال ايضا فى زيادة الاحساس بالامل ، والعمل لتحقيقه .

والنتيجة : ان تركيز الاحاديث الشريف على الانتظار ، والادعية المختصة بهذا المورد : لهو اسلوب اسلامى فذ فى الاشعار بالامل وتركيز الاحساس به .

مثال من القرآن الكريم

وقبل ان ننتقل للفصل التالي نرجع الى القرآن الكريم ليحدثنا عما استطاع الامل الاسلامي القيام به من دور في حياة الجماعة المسلمة وفي احرج لحظات الحياة . . .

فقد احست قريش بعد ان رجعت من معركة أحد انها لم تستغل نصرها غاية الاستغلال، ولم تستأصل الدعوة الاسلامية في لحظات قوتها هي وضعف المسلمين، ولذا فقد تناهى الى النبي صلى الله عليه وآله انها عازمة على الرجوع الى المسلمين وتنفيذ خطتها المشؤومة .

وكان الموقف خطيراً اذ أن جراح المسلمين كانت تنزف نتيجة الهزيمة المرة في معركة احد ، الا أن القرآن هنا اسند النبي صلى الله عليه وآله بآيات قرآنية حركت في المسلمين عنصراً هاماً بعث فيهم الحياة من جديد .

فقد امرهم النبي صلى الله عليه وآله ان يتجهزوا للمسير الى

قريش ورفض ان يخرج معه الا الذين شهدوا المعركة حتى ان عبد الله بن ابي قال : اركب معك ، فقال صلى الله عليه وآله : لا .

وجاءت هذه الاية الكريمة لتبين للمسلمين الفارق الكبير بينهم وبين قريش.. فتقول: « ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون » انه الهدف الكبير والرجاء البعيد المدى الذى يدفع الكل للتضحية في سبيله بكل ما يملك .

وهكذا تحرك الجيش الاسلامي الجريح كالاسد الجريح وبلغت انباء تحركه الى قريش فلم تقو على تحمل المعركة من جديد، بعد ان سمعت بالعزم الاسلامي والحماس . . وارسلت من ينهى الامر برجوع كل طرف الى قواعده سالماً .

كان هذا مثالا على دور الامل .

ويمكننا ان نستعرض عشرات المواقف بل تاريخ المسلمين الاول كله لنجعله مثالا على دفع الامل الاسلامي .

الفصل السادس

الامــل

الذى تبعثه نوعية النظام الاسلامى

الاسلام يقود الامة خلال قرون

انالمسلم الواعى رغم كل الدعايات المضللة ليستمد من الواقع الموضوعي القائم امامه املا اضافياً الى جنب ماتمده به عقيدتـه ومفاهيمه من رجاء ما بعده رجاء .

فانه اذا رجع بنظرته الى الوراء .. حيث مطلع الاسلام يجد ان الاسلام نقل الامة من وهدة الجاهلية ، والتأخر الفضيع الـى حيث جعلها تمشي على قمم العصور، وتبني اروع حضارة عرفتها البشرية واول وآخر حضارة يمكن ان يجعل العنصر المميز والمحرك لهـا الدين بصفة عامة .

فلقـد قاد الاسلام الامة خلال قرون طويلة ، ولولا اختلال في التطبيق ، وانحراف كبير فى القيادة لكان من المتوقع له ان يسيطر على العالم ، ويوجه الانسانية الى حيث كمالها اللائق بها .

ويجد ـ اي المسلم ـ ان الاسلام انتصر بعوامل كثيرة كان من

اهمها القيادة الحكيمة المفقودة فعلا ، وخصائص الاسلام نفسه التى يمكن ان نطلق عليهـا صفة « الواقعية » والتي عبرت عن نفسها في الظواهر الاسلامية العامـة التى منها هذا (الامل) موضوع هـذا الكتاب .

ومنها المرونـة والترابط والتوازن والشمول وامثال ذلك كما عبرت عن نفسها فى ابتنائها على ارضية اصيلة : تحدد للانسان موقفه من الكون على اســاس فطري عقلي وتمنحه عقيدته الخالصـة التى تنبع منها مفاهيم تصورية رائعة واخلاقية فكرية وعملية . وقد نوفق فى مايأتى من هذه السلسلة لعرض هذه المظاهر .

واذا كانت القيادة الحكيمة غائبة فعلا فان طاقات الاسلام متوفرة فيه ، وان لـم نستطـع ان نستوعبها ونستوعب تأثيراتها فى النفوس ، ونطبق اساليبها فى التبليـغ والعمل .

وهذه الطاقات ـ رغم عدم وضوحها فى أنفسنا ـ تعمل عملها اليوم فى خلق موجة عالمية للاتجاه للاسلام، وقبول قيادته والانضمام لمعسكره الانساني .

الاعداء يشعرون بالخطر

اننا بعد أن نعترف بان هناك قصوراً وتقصيراً كبيرين فى جهاز التبليغ الاسلامى لنلاحظ ان تقدم الاسلام اليوم يبشر بكل خير .

فقد جاء فى كتاب (مالم يقل عن دوجول) انه ـ أى دوجول ـ بعد الهزيمة الفرنسية حاول الانتحار وارسل يطلب الراهب الذى يعترف

لديه فقال له معللا ما عزم عليه :

«ان اوربا الغربية الان تنهار أهام النازية ومعنى ذلك انهيار الحضارة النصرانية بصفة نهائية أن امريكا أختنا في الدين وفي الحضارة وسوف تعمل ما تستطيعه لا نقاذ الموقف شيئاً ما ولكن حضارتنا مع ذلك ستنتهي .

وهنالك في الصين شعب قوي نسميه تارة الخطر الاصفر ولكنني لا اعتقد أنه يكون البديل الصحيح فالحضارة الصينية لا تبلغ درجة حضارتنا المسيحية ولكن الذي اخاف هو هذا الخط الذي يمتد من طنجة الى كراتشي .

ان الاسلام ذو حضارة وثقافة وهو جدير بأن يكون الوارث لنا فاذا تحالف مع الصين فانه لن يوجد أحد يوقف المسلمين عند بواتيه[1] .

وينقل الاستاذ العقاد في كتابه (ما يقال عن الاسلام) تصريحات عديدة كلها تعرفنا على ادراك الاخرين لسرعة انتشار الاسلام في افريقيا فيقول مستندا الى احصاءات الكتاب الشاملة .

« ويفهم من الاحصاءات ايضا ان الاسلام سريع الانتشار ولكن العلم به سطحي بين قبائل القارة الاصلاء ... وقد لوحظ أن الشبان من قبائل (الموسيي) اقرب الى اقتباس العقائد الاسلامية ويعودون

---

١) الاستاذ علال الفاسي مجلة الهادي العدد الثاني السنة الرابعة ص ٢٨ .

الى اهليهم من بلاد النيجر مسلمين متشددين فى الدعوة الى عقيدتهم الجديدة» ص ٢٩ .

ويقول« امانظرة الحذر فهى ديدن المشتغلين بالتبشير والاستعمار كلما نظروا الى شيوع الدعوة الاسلامية وسهولة انتشارها بالاقناع والقدوة » .

وينقل عن المؤلف الامريكى لكتاب (افريقية الجديدة) رأيه بأن الاسلام اعرق واثبت فى القارة الافريقية من ان تعوقه عن الانطلاق فى أرجائها عوائق التبشير او المقاومة السياسية فان المسيحية لم تفلح قط فى مقاومة الاسلام بالقارة » ص ٨٤ .

ويقول فى حديثه عن بعض طاقات الاسلام فى الرسوخ: ان من اسباب قوة الاسلام بين قبائل (الهوسا) الى الجنوب من بلاد المغرب الاقصى أن الشعائر الاسلامية قد أصبحت عندهم « طريقة حياة مع الايمان بعقائدها الروحية وقلما ينجح المبشرون فى المزج بين التدين واساليب المعيشة اليومية » .

ومن كتاب مؤلف من قبل قس امريكى اسود يتوضح « ان تحويل الدعوة الاسلامية ـ يقصد فى امريكا ـ من حركة مقصورة على السود الى حركة تفتح ذراعيها للسود والبيض من الامريكيين هى موضوع الاهتمام الكبير فى دوائر التبشير لان المبشر الاسلامى من الامريكيين السود يعاون الدعوة الى الاسلام فى بلاده كلما اتجهت

هذه الدعوة الى ابناء البلاد جميعاً من قبل المسلمين الاسيويين والافريقيين وهم اليوم فى امريكا طليعة ناجحةقديتبعها غداًمدد كبير وادعى من ذلك الى اهتمام دوائر التبشير :

ان المسلم الامريكى الاسود يزاحم البعوث التبشيرية مزاحمة شديدة فى القارة الافريقية بعد استقلال شعوبها عن سلطان الدول الغربية » ص ١٠٩ .

« ويري باتين فى سلسلة كتبه عن اواسط افريقية ان انتشار الاسلام بين الافريقيين ـ اذا روجعت اسبابه جميعاً ـ انماهو نتيجة لامحيد عنهالانتشار حضارة انسانية ممتازة لم تكن فى العالم حضارة تضارعها او تقوى على فعاليتها .

وأن وصول الاسلام الى القارة الافريقية كان ملازما لوصوله الى القارة الاروبية نفسها وامتداده الى الاقطار البعيدة من القارة الاسيوية وقد كان امتياز حضارته سبباً كافياً ـ لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذى يصل اليه الانسان المطبوع على الترحل والسياحة » ص ١١٤ .

هذا الى غيرذلك من النصوص التى ينقلها هووغيره عن انتشار الاسلام فى عصرنا الحاضر .

فاذا لا حظنا ان تلك العناصر المقوية كانت تمتلك فى مطلع الاسلام بلاريب مظهرا اقوى وتأثيرا اكبر لوضوحها وعمقها

في المجتمعات التي تنضوي تحت الاسلام وخصوصاً المسلمين الاوائل في الجزيرة العربية عرفنا مدى مساعدتها في عملية انتشار الاسلام الى ارجاء المعمورة .

والحقيقة ان مؤتمرات الحوار الذي تدعو اليه والكنيسة الكاثوليكية ـ اليوم ـ تعبر عن نفس هذا الشعور باحتياجها الى هدنة مع الاسلام بعد أن اكتسح الاسلام قواعدها ، ودخلته البشرية افواجاً.

النظام الاسلامي يسبق الفكر الوضعي

وكل هذه البشائر لو جمعت الى صف حقيقة علمية اصيلة هي سبق النظام الاسلامي لكل النظم الوضعية والنظريات البشرية المطروحة في المجال التنظيمي، فان ذلك ليؤكد في قلب الانسان المسلم أعمق الامل بالانتصار .

يقول الاستاذ عبدالقادر عودة في كتابه القيم «التشريع الجنائي في الاسلام» مايلي[1]:

وان كانت نظرية الشريعة قد جمعت بين النظريات التي سادت القوانين الوضعية من القرن الثامن عشر حتى الان ، فان نظرية الشريعة قد تنزهت عن العيوب التي شابت النظريات الوضعية ، وسلمت من الانتقادات التي وجهت اليها .

ولعله مما يدهش الكثيرين أن يعلموا : أن للعقوبة في الشريعة الاسلامية نظرية علمية فنية تامة التكوين لايأتيها النقد من بين يديها

١) الجزء الاول ص ٦٢٧ .

ولا من خلفها وأن القانون بالرغم مما وصل اليه من تقدم انما يسير في أثر الشريعة ، ويترسم خطاها وانه لم يصل بعد الى ما وصلت اليه الشريعة . وان النتائج التي وصل اليها القانون ، والاتجاهات التي يتجه نحوها تدل على أن تطوره في المستقبل القريب أو البعيد لن يخرج عن النطاق الذي رسمته الشريعه للعقوبة » .

ويقول بعد ذلك :

« ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر أن القانون الوضعي كان حتى آخر القرن الثامن عشر قانوناً وحشياً بعيداً عن أفق الانسانية فكان يحاكم الاحياء والاموات والحيوان والجماد وينزل بالجميع عقوبات شتى قائمة على التمثيل والتشهير ، كان القانون الوضعى هكذا حتى أخذ في القرن الثامن عشر بأول مبدا من مبادىء الشريعة الاسلامية فانقلب قانوناً انسانياً بحتاً . . . » .

وليس هذا بالنسبة للقانون الجنائى فحسب بل انا لو استعرضنا مختلف القوانين والنظم الاسلامية وجدنا النظرية الاسلامية قد جاءت باروع نظام فى حين ظل الفكر الوضعى يتعثر فى طريقه قروناً وقروناً وما زال كذلك الا أن يأخذ بحجزة الاسلام .

مثال اقتصادى مذهبى

يكتب الامام الصدر في كتابه الرائع «اقتصادنا» فيقول :«وبينما

أخذ المجتمع الراسمالي بالحرية الشكلية ، وطرح الحرية الجوهرية وفكرة الضمان جانباً ، وقف المجتمع الاشتراكي موقفاً معاكساً - اذ قضت الاشتراكية الماركسية فيه على الحرية الشكلية باقامة جهاز ديكتاتوري يتولى السلطة المطلقة في البلاد ، وزعمت انها عوضت عن تلك الحرية الشكلية بحرية جوهرية ، أي بما تقدمه للمواطنين من ضمانات للعمل والحياة .

وهكذا اخذ كل من المذهبين بجانب من الحرية ، وطرح الجانب الأخر ، ولم يحل هذا التناقض المستقطب بين الحرية الشكلية والحرية الجوهرية ، او بين الشكل والجوهر . . . الا في الاسلام الذي آمن بحاجة المجتمع الى كلا اللونين من الحرية ، فوفر للمجتمع الحرية الجوهرية بوضع درجة معقولة من الضمان تسمح لجميع افراد المجتمع الاسلامي بالحياة الكريمة ، وممارسة متطلباتها الضرورية. ولم يعترف في حدود هذا الضمان بالحرية . وفي نفس الوقت لم يجعل من هذا الضمان مبرراً للقضاء على الحرية الشكلية ، وهدر قيمتها الذاتية والموضوعية ، بل فتح السبيل امام كل فرد خارج حدود الضمان ومنحه من الحريات ما ينسجم مع مفاهيمه عن الكون والحياة فالمرء مضمون بدرجة وفي حدود خاصة ، وحر خارج هذه الحدود . وهكذا امتزجت الحرية الجوهرية والحرية الشكلية معاً في التصميم الاسلامي هذا الامتزاج الرائع الذي لم تتجه الانسانية

في غير ظل الاسلام ـ الى التفكير فيه وتحقيقه الا في غضون هذا القرن الاخير، اذ بدأت المحاولات الى اقرار مبدأ الضمان، والتوفيق بينه وبين الحرية، بعد أن فشلت تجربة الحرية الرسمالية فشلا مريراً»[1].

انه اذن انفتاح البشرية على الاسلام ـ وانه الامل النابع من الواقع التطبيقي، والذى يملأ جوانب قلب المسلم تطلعاً لليوم الموعود.

وقد كتبت قبل سنين في احدى المجلات الاسلامية مقالا قلت فيه:

«منذ أن غابت تلك الشمس الرائعة سر تقدمنا ومنطلق عزتنا التي كنا فيها نسير على قمم الزمان الشواهق، منذ أن أسدلت الستر الكثيفة على منبع النور ـ الا قليلا ـ، وكل الفضائل المؤمنة التي وعت واقعها وحددت نقاط الداء في جسم الامة ومارأت لكل ادوائها علاجاً ومنقذاً الا الاسلام العظيم عندما يعود فيمسك دفة الامور ويحكم في كل مجالات الحياة .. كل هذه الفضائل تمر بمرحلة الصبر وما هي الاعملية تخزين للطاقات ومنعها من الاهدار والضياع في غير وقتها المناسب. ومن خلال هذه المرحلة الطبيعية تتطلع قلوبها اليوم الى نقاط ضوء تبدو خلال السحب الكثيفة .. فتبشرها بالخير كل الخير .. وتشير لها أن تعد العدة للمستقبل ...

١) اقتصادنا ج ١ ص ٢٥٠ .

فهنا شعور معمق بالحاجة الى الاسلام ، وهنا نمو في الدعوة الىواقع التطبيق وسعى حثيث نحوانزالهاالى واقع التطبيق، وهناك خطوات مشكورة نحو لم الشمل ورأب الصدع، وهناوهناك بشائر أخرى كلهـا تبعث فى القلوب آمالها وفي العيون بريقها وتدعـو المستقبل البعيد البعيد فاذا بهيصبح قريباًجداً بحيث لايمكن الانكار.

لقد التزمت البشرية بأطروحات عديدة . . لا صلة لهابالسماء فجربتها وعاشت فى ظلالها .. فلم تجن منها الا الاسى والالم، ولم تجد فيها السعادة التي تريد . . والرواء الذى تحتاج وبالرغم من ذلك بقيت تتخبط بعيداً عن أطروحة السماء الى أن وجدت نفسها في نهاية الشوط مفلسة وقد أعياها المسير ... وكان هذا الاعياء الان فى القرن العشرين حيث نجد ردود الفعل لضياع الانسانيةالطويل يتجلىفى مظاهر مختلفة : منها اقبال ملفت للنظر على رسالةالسماء. ومهما يكن هذا الاقبال . ومهما تكن هذه العودة . . فان لها عندنا قيمتها . . شرط أن توجه الوجهة الصحيحة وتسقى بري القرآن .

اننانعتبر الامة تعيش الانفتاح علىعقيدتها من جديد ، ولايعنى هذا أننا فىالطريق سائرون بـلا عقبات وعراقيل ، كلا . . بل يعنى العكس لان أعداءنا ـ وهم الاكثر تخطيطا للامور ـ يرصدون كل حركة يتململ بها هذا المارد السجين ويعدون له كل حركة نفس ، وحتماً فانهم سيحسبون للامر حسابه . ولكنا مطمئنون بأن للباطـل

جولة وللحق دولة ، وأن البشرية بمقتضى واقعها الفطرى الاصيل ، وشعورها بخيبه الامال فى آرائها الناقصة ، وتصريحات الذين دقوا لها ناقوس الخطر وتنبؤوا بمستقبلها الذى تؤطره السماء باطارها المقدس كل هذه تؤكد ان النهاية الطبيعية للبشرية وان ميناء الامان يكمن فى نقطة واحدة يذوب عندها كل ما عداها . . . ولعل العالـم يصلها عن قريب : انها الاسلام الخالد .

« انهم يرونه بعيداً ونراه قريبا »

على أن تلك القضية الواقعية لايمكن أن تفسـر سلبية معينة او توقعاً مريضاً يعيش على فتات الامل .

بل أنها على العكس تشكل الدافـع الدفاق لكل واع ومخلص لكي يؤدى دوره كاملا وهو مطمئن للنتيجة العظمى التي رسمها من قبل وعد الله تعالى .

(وعد الله الذين آمنـوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[1].

---

١) مجلة الهادى العدد الثانى السنة الثانية ص ٥ .

واخيراً :

فان طاقات الاسلام مازالت فياضة معطاء . وايجابية الامل فيه ما زالت تدفع العاملين في سبيله ... بشرط أن يحققوا شروط الدفع.

فالى اهداف الاسلام أيها المسلمون . . . والى الامل الكبير ولنحقق وصية امامنا امير المؤمنين عليه السلام حيث يقول : « الا وأن اليوم المضمار ، وغدا السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار . الا وانكم في أيام امل من ورائه اجل فمن عمل في أيام امله قبل حضور اجله نفعه عمله ، ولم يضرره اجله ، ومن قصر في ايام امله قبل حضور اجله فقد خسر عمله وضره اجله » .

والله الموفق

الفهرس

الفصل السادس

هذا الكتاب

بين يديك حلقة من سلسلة حلقات نرجوان نوفق لايصالها اليك وكلها تستهدف عرض اهم الظواهر العامة في رسالة الاسلام الخالد .

وباكتمالها تتوضح صورة اروع عقيدة ونظام قدمته السماء للبشرية ليقودها نحو كمالها المنشود .

والامل المبشر بانفتاح البشرية على الاسلام بدأ يورق يوماً فيوماً بعد أن كلت البشرية من الجرى وراء السراب الخادع للنظم الاخرى .